الغجرية و يوسف المخزنجي



رواية

إدوار الخرّاط

دار البستانى للنشر والتوزيع

تأسست عام ١٩٠٠

الغجرية ويوسف المخزنجي

الكتـــــاب : **الغجرية ويوسف المخزنجي**

فانتازيا روائية في تسعة فصول

المؤلـــــف : **إدوار الخرّاط**

النـــاشـــر : **دار البستانى للنشر والتوزيع**

٢٩ شارع الفجالة ١١٢٧١ القاهرة - مصر

٤ شارع على توفيق شوشة - مدينة نصر - ١١٣٧١

هاتف: ٥٩٠٨٠٢٥ / ٥٩١٥٣١٥ فاكس: ٢٦٢٣٠٨٥

E-mail: boustany@boustanys.com

Web-site: www.boustanys.com

صورة الغلاف: كولاج إدوار الخراط

المطبعة : دار نوبار للطباعة

رقـــم الإيــداع : ٢٠٠٤/١٩٣٥٥

الترقيـــم الدولـي : I.S.B.N. 977-5383-56-0

إدوار الخرّاط

الغجرية ويوسف المخزنجي

فانتازيا روائية في تسعة فصول

دار البستانى للنشر والتوزيع

تأسست عام ١٩٠٠

الفصل الأول

سماء الدِخيلة في الصبح المبكر جداً، مازالت غامضة.

وشيش البحر مسموع، مختلط بحنين ليس له هدف.

المخزنجي يقف الآن على حافة فتحة الونْش المرتفعة الواسعة، بعرض حائط المخزن، يطلّ من غير مبالاة على امتدادٍ صحراويّ نبتت على أديمه زرْعات داكنة قصيرة، وأنقاض مبانٍ ضخمة مهدّمة، عتيقة، ناتئة.

كان قد فتح باب المخزن بالمفتاح الحديديّ الضخم ذي الأسنان الكبيرة الشريرة، وهبّتْ عليه رائحة الليل المحبوس، مخَمخمة، فوْح الرطوبة الخفيفة المتلبثة المقفلة على بالات الملابس الجديدة لنْج، محزومة بسيور من الحديد الرقيق المتين تُحكِم وثاقها، والكراتين الملفوفة بأقمشة المشمّع زيتيّ الملمس، والجنازير الثقيلة القوية في أكوام مرتفعة متراكبة، وأخشاب القوارب الضخمة الجديدة مقلوبة على وجهها في عتمة آخر المخزن.

المخزنجي سهر الليلة الفائتة حتى الثالثة صباحاً، نَقَل ملخصات دروس يوسف كرم في الفلسفة اليونانية، من كراسة زميله رامي علي، قرأ شيئاً من كتاب أبو العلا عفيفي في التصوّف الإسلامي، راودته الأحلام الشبقية المعتادة، تجسد في كيانه طيف الأنوثة المخايلة، كتب سطوراً من الأشواق الغرامية على ورق أصفر شفيف مقطوع حسب مقاسه الشخصي.

مثْل كل يوم، على السادسة والنصف صباحاً – على وجه الدقة – يأتي بالترام من غيط العنب، يغيّر في شارع الخديوي إلى ترام المكس.

لكنْ اليوم، حتى في هذا الوقت المبكر، وعلى غير المعتاد، تأخّر الترام.

كانت الحركة في الشوارع هادئة أكثر من المألوف، في البلد توتُّر وقلق.

عندما يصل إلى آخر العمار، في نهاية خطّ الترام، يضرب في المدقّ الحجريّ

بين رمال خشنة وصخور متكلّسة، حتى يشارف النخلة الوحيدة غليظة الساق، غير مقلّمة، وارفة السَعَف، باسقة وشاهقة أمام باب المخزن الحديديّ الوحيد، في وسط السور الحجريّ.

الكونستابل المالطي المتقاعد الذي يأخذ ورديّة الليل في حراسة المخزن، كان نائماً، أو نصف نائم ربما، في الكشك الخشبيّ الضيق بجانب الباب.

– إصحَ يا عم يورغو. آدي حْنا بقينا وشّ الصبح يا راجل.

يورغو يبربش بعينين كليلتين ملؤهما نعاس الليل المتقطع، يضع الكاسكيت العسكري القديم من أيام العزّ، عندما كان يشتغل مع الإنجليز، ويكبسه على رأسه الذي مازالت فيه فروة خشنة قوية من الشعر الأملح. يتثاءب عن فمٍ فيه كلّ أسنانه المصفرةّ من أثر أجيال من دخان المعسّل والحشيش، مازالت كلها سليمة دون نقصان.

– صباح الخير يوسف، صباح الإشطة، صباح الفلّ. هوه أنت ما تجلّيش مرة وتاجي مأخّر شويتين، أمّا ماريّا يا جدعان..!

يورغو ينحني ليفك القفل الشرس الضخم الراقد على الأرض، يدفع الباب الجرار لينزلق بصوت احتكاكٍ أملس ناعم على مجراه الحديديّ، وينفخ على الحوش الداخلي للمخزن.

يورغو المالطيّ ابن البلد العجوز هو وحده الذي يرافق يوسف المخزنجي – هو على الأدقّ "وكيل" المخزن رقم ٦ من مخازن الشركة البحرية التجارية الدولية بالمكس والدخيلة والقباري والورديان. يفتحان الباب الداخلي معاً، ينشقان – كأنما عن عطش – رائحة المخزن، مزيج من نفح خبش البالات وخشب الحاويات وفوح المشمّع وصدأ الحديد وزهومة أنفاس الليل. رائحة مع ذلك يحبّانها يملآن الصدر بها.

يصعد المخزنجي – وحده – السلمّ الحجريّ إلى الدور الثاني، حيث الونش، والمكاتب، والكانتين، هو الذي يرفع الصاج المضلّع الذي يغلق فتحة الونش العريضة، يدور الصاج على محور يتخذ شكل اسطوانة صلبة ومرنة معاً، متدرجة الطيّات، يلتف على نفسه صاعداً بصوتٍ بهيج إلى أعلى الفتحة ليترك هواء البحر والصحراء يقتحم الدور العلويّ من المخزن. يتدفق نور الصبح المبكر ليضيء الأرضية الخشبية وقاعدة الونش الحديدية وجنازيره وعدّته.

عمّ علي الونشان يصل في تمام السابعة.

يزيّت التروس، يختبر متانة حلقات الجنزير إذ يعجم معدنها بأصابعه الخشنة المدرّبة، بسرعة وبطريقة آلية ولكن يقِظة، ثم يعطي مَكَنَة الموتور زقّة تكركر على أثرها وتزحر وتنفث غاز العادم ثم ينتظم نبضها الرتيب حتى إذا اطمأن على سلامتها وفعاليتها أطفأها بحركة رضى، وأخرج علبة ورق البافْره من جيب صديريته ولفّ لنفسه سيجارة بالدخان الفَرط المفروش بعناية في العلبة الصفيح التي نال الصدأ من أطرافها، وبعد أن يُحكم لفّ السيجارة ويلعق طرفها المدبّب بطرف لسانه يشعل سيجارته الصباحية الأولى باستمتاع خاص، ويلتفت إلى المخزنجي – كأنه يراه لأول مرة – صباح الخير يا بُني يا يوسف. والله مانا عارف البلد مالها

النهارده، بيقولوا مظاهرة كبيرة طالعة من الجامعة في محرم بيه، الطُلَبة عاملين إضراب، والفاوريكة في كرموز قفّلت. بلوك النظام فوق بعض في اللواري على قمة الخديوي ومينا البصل، ياربّ سترك ياربّ. اللهم انصر عبيدك.

بينما كان "فتحي الكانتين" قد أعدّ له كبّاية الشاي البوسطة التقيل المعتبر، يشفط عمّ علي أول رشفة، وينشق دخان سيجارته، يملأ صدره وقلبه برحيق العافية وأنفاس المجدعة وحرفنة الأسطوات القراري.

من فتحة الونش لمح المخزنجي قافلة الغَجَر تدبّ ببطء من بعيد على رمل الدخيلة.

لم يكن يعرف ساعتها أن قدره قد أوقع به في شِباك هذه القافلة، وأنه هو المقصود بها على غير علمٍ منه أو منهم. أم أن القدر هنا هو محض اختيار؟

العربة الكارّو الخشبية الطويلة عليها خيمة الخيش مطوية ومربوطة بالحبال، تبدو ثقيلة، داكنة، مرقعة بأمشاج من قماش خيام الجيش وجلد الماعز الجافّ المدبوغ، متراوحة الألوان، مخيطة بإحكام بعضها إلى بعض، وإلى جانبها الأوتاد القصيرة السميكة قديمة وحائلة اللون ومدببة الأطراف. والطشت النحاس العتيق، وحلل الطبيخ ووابور الجاز، صفائح فارغة ونصف ملآنة، وعدةِ الحدادين: المنفاخ الجِلْد لزوم وَهوَجة النار، أسياخ طويلة ومعقوفة، سندان قصير مدملج، مطرقة مفلطحة الرَأس، شواكيش مختلفة المقاييس، أربعة قوالب بازلت يُرص كلّ اثنين منها لتصنع كلها تنّوراً تتأجج في قلبه نار متقدة الأُوار نافعة في شتى أغراض

الحدّادين؛ الحمار الثقيل يجرّ العربة بجهد دؤوب، تتواثب حول قوائمه الرفيعة الطويلة كلبةٌ سوداء غطيس، ضروعها متدلية تحت بطنها ببذاءةٍ معلَنة، وعلى العربة تكمن قطة الغجَر، سمينة، مدورة الوجه، لها شعر مشمشي منقّط بالأحمر الكابي الداكن، رابضة، متمطية، متربصة.

شعلة النفط متقدة صفراء اللهب على فوّهة أنبوب طويل منبثق من الأرض غير بعيد إلى الغرب من المخزن كأنما يرد على النخلة التي تصعد سامقة نحيلة أمام باب المخزن من ناحية الشرق.

لم يكن المخزنجي يعرف – ولا نحن كنا نعرف، من الأوّل – أن هذه الكلبة، لا اسم لها، إلا أنها كلبة "صانوه" ولا أن "مورة" القطة، ولا هذه القافلة سوف ترسم له خطّاً من خطوط مصيره، على نحوٍ ما، ولا أنها سوف تطوف بساحة أحلامه حتى آخر العمر.

كان في إطلالته على الصحراء، من فتحة الونش في الدور العلويّ من المخزن رقم ٦، إنما يطل – دون أن يدري تماماً – على مآلٍ مضطرب وجيّاش، ولكن ظلاً كان قد بدأ يخيّم على روحه، بشكلٍ ما.

القافلة الغريبة تقترب من المخزن، أو هي على الأصح تقترب من المخزنجي.

جاءوا من ناحية الشرق، على المدق الحجري وسط رمال الدخيلة.

إلى الشمال منهم اصطفاق موج الساحل الشماليّ الغاضب باستمرار، لا يهدأ، ضربات المياه المُزبدة لا تستقر، موسيقى اختباطها المائيّ لها أصداء مدويّة.

حطت القافلة رحالها على بعد نحو خمسين متراً من السور الشرقيّ للمخزن، إلى الشمال قليلاً من البوابة بانحراف ناحية البحر، تحت أنقاض القلعة القديمة.

نزل الشيخ الذي كان يقود العربة والقافلة، وثب بخفةٍ غير متوقعة إلى الأرض الرملية.

سوف يعرف المخزنجي أنه شيخ الغَجَر، وأن اسمه "أبو غالب" وأن له الكلمة العليا، وهو الذي يوزّع مكاسب اليوم – كل يوم – من نقود أو حبوب أو بيض أو غيرها – بالعدل والإنصاف بين أفراد القافلة، نساءً ورجالاً وفتية وفتياتٍ على السواء، لكلّ حسب عمله وحسب حاجته في الوقت نفسه، وسوف يراه، فيما بعد، يهوي بكفه الغليظة الصلبة على وجه وضّاح الحدّاد الشابّ في عنفوان قوته وكبريائه، فلا ينبس الشاب بكلمة ولا يرفع يداً تصد عنه الصفعة.

أشار أبو غالب بيده إشارة سريعة.

نزل وراءه أصبَى وأقوَى فتيان القافلة – أعتَى رجالها – طويلاً، ناحل العود لكنه مفتول العضَل، يعتمر عمامة صغيرة بيضاء، على صديري ليس له أزرار، مفتوح فوق فانلة نصف كُمّ، وبنطلون جينز أصلي باهت قديم.

سقط وضّاح الحدّاد على الرمل بثقل، رفع ذراعيه العضِلتين، بدأ يجذب الخيمة المطويّة الضخمة، يساعده عوّاد أبو مزمار الذي بدا مبتسم السنّ، هو ضاحك وسعيد باستمرار، مكشوف الرأس، يلبس چاكته كاكي لها جيوب كثيرة، جيبه العلويّ اليمين واسع تثقله وتجذبه إلى الأمام أشياؤه: علبة سجاير مارلبورو، ولاعة ذهبية كبيرة – من أين استولى عليها؟ – ويطل منه منديل محلاّوي كبير مربعات يبدو طرفه المتغضّن غير تام النظافة.

يعتلان الخيمة المطويّة، يُسقطانها على الرمل بصوت هدّةٍ مكتومة.

يذهب كلّ منهما إلى طرفٍ يشدّه ويقيم عوجه.

بينما آخذ روّاد أبو رقّ، مدوّر الجبهة، عاقد الحاجبين بعكوف الاستغراق فيما هو بسبيله، يدقّ الأوتاد الخشبية القصيرة المتينة في المواقع التي يراها صلبة أو حجرية تحتمل الثقل الذي سوف تُوكّل بعبئه، يسندها بصخور قوية جمعها بخفةٍ من حول العربة الكارّو، وقد رفع الحمار الفاره رأسه الضخم عالياً وصدر عنه نهيق عالٍ متراوح متردد الجنبات، يحيّى خِفة الحِمْل الذي كان مُلقىً عليه.

إذ أَخذت الخيمة يشتد قوامها وتنبسط جوانبها العريضة وسقفها الواطئ، ظهرت من خلفها جماعة صغيرة خطفت عينيْ المخزنجي إذ يلمح خطوطها من بعيد، الملابس النسائية الملوّنة زاهية الخضرة تنسدل على الأفخاذ المدكوكة والسيقان المخروطة، والأحزمة الحمراء العريضة تحيط ببطون هضيمة.

سوف يعرفهن المخزنجي معرفة الحميم للحميم.

مانورة عين الليل، مدوّرة الوجه، مدورة الجسم، الملكة الغجرية فاحشة الجمال، فاحشة السطوة.

ريم قمر القلوب، رقيقة رهيفة بعينين فاحمتيْ السواد ثاقبتيْن بالنعومة والحزن غير المبرَّر غير المفهوم.

محاسن المطيباتية التي فاتها الحسن ولم تفتْها المناغشة الدائمة كأنما تستغفر بها عن افتقارها لبهاء مانورة الساحق ووداعة ريم الآسرة

لواحظ نجمة الجماعة المتألقة، سوف ترقص وتغنّي للصبح.

ومعهن، وعلى رأسهنّ، أمّ رضوان، العجوز الحكيمة عارفة الأسرار ومُهيّئة الأقدار.

فجأةً رأى المخزنجي ما أدهشه – ما أقلّ ما يثير دهشته – القرد الذي أفلت من سلسلة قدّار، وانطلق يثب فوق العربة الكارّو، وعلى ظهر الحمار

الذي – هو – لم يُبدِ أية دهشة، ويدور حول الخيمة التي يجاهد الرجلان أن يقيما عمادها بإشراف الشيخ أبو غالب وتحت تعليماته. الرجال يتصايحون ويهتفون بالقرداتي أن يلحق بالمدعوق الجادي لَحْسَنْ يجرّسنا هوّه احنا ناقصين جُرْسه من الكيرة والجُشنى.

من وراء العربة الكاروّ ظهر المعْز، يقودها الذكَر فارع القرون.

الرؤوس النهمة انحنت على النباتات الصحراوية الشحيحة تقضم وتلوك غير عابئةٍ بشيءٍ مما حولها، دائبة، عاكفة فقط على ما يُرضي جشعاً لن يغذوه شيء، نهماً إلى لذةٍ زائلةٍ باستمرار.

هبّت رائحة المدابغ مختلطة برائحة روث المَعْز والحمار فأثارت القرد فراح يعدو على الرمل البراح يبتعد عن القافلة بسرعة، قدّار يجري وراءه، يناديه، ميمون.. ميمون – هل ثَمّ اسمٌ آخر يمكن أن يكون للقرد؟ – يصفّر له صفارة الدعوة والمطايبة. قفز القرد على ربوةٍ تراكم فيها الرمل الخشن على أنقاض الحجارة المتبقية من القلعة المهدّمة على شطّ البحر الذي يواصل حواره الصاخب الرتيب، موجه يضرب قاعدة سور القلعة الحجريّ المتهاوى وينكص، ثم يعود يرغَي يعلو رشاشُه الأبيض.

نباح صانوه الأجش ملئ الصدر يكركر فجأة ثم يهبط إلى عويل خفيض يردّ على رتابة ضربات الموج، ضروعها الكثيرة المتدلية من بطنها تئنّ بحملها من اللبن المتخثر الذي لا يجد له صرِفة. أين جراؤها؟

قال المخزنجي لنفسه:

– لن ينتهي هذا الهمّ كله على خير. كل هذه الحيوانات – هل هي، كلها، قافلة الغجر كلها حيوانات؟ باهره الحيوانية في اكتفائها بذاتها؟ أم في هذه العيون الحيوانية الإنسانية معاً نزوع نحو سماوات داخلية لعلني لا أعرفها ولا أُقاربها أنا الذي أزعم لنفسي أنني مفكّر وحالم وعلى نحوٍ ما شاعر؟

من موقعه على فتحة الونْش العريضة، باكراً في هذا الصبح الغريب، وقبل أن يصل عمّ علي الونشمان، خطر ببال المخزنجي خطفاً. هل من العدل أن يكون لعمّ علي امتياز خاص إذ يُسمح له بالتأخير نصف ساعة عن ميعاد فتح المخزن؟ لكنه استدرك على خاطرته السيئة بأن الرجل لا يترك المخزن، وهو وصبيّه حسنين، إلا الساعة السابعة والنصف - صيفاً وشتاءً - بعد سائر العمّال والموظفين بنصف ساعة، بعد أن يكون قد اطمأن كل مساء كما يطمئن كل صباح على أن مكنة الونش وسلسلة الحديد وأرضيته الأسمنت كلها آخر تمام، مجلوّة، ممسوحة، زيتها وجازها وشحمها، كما يقول "فُلّ الفلّ، ميّة وعشَرة".عمّ علي، بعكس أقرانه المعلمّين الكبار، لا يتورّع عن القيام بهذا العمل مع حسنين صبيّه المقروض القصير الملحلح القشاط.

رأى المخزنجي، على البعد، شيخ الغجر الذي سوف يعرف أنه أبو غالب، يجلس على الأرض بحركة مفاجئة، كأنه انهدّ، يضع يده اليسرى على صدره كأنما يسند قلبه أو يسترد نَفَسه. تحلقت حوله المرأتان: الجميلة فادحة الحلاوة والصغيرة الرهيفة واسعة العينين، بل نهضت إليه الأمّ العجوز، ثُمَّ حركة غير عادية في حلقة الغجر وحيواناتهم معاً، قال المخزنجي:

- هل هؤلاء الغلابة الذين انهدّ حيلهم، مهما كانت نسوانهم باهرة الجمال، هم السحرة الكفرة الحرامية الذين لا يرعون ذمةً ولا خلاقاً؟ أصحيح أنهم - هذه الجماعة الرثّة بائسة المظهر - تملك قُوىً خارقة؟ أنهم أعوانٌ وأنصارٌ وأخوةٌ لأهل ما تحت الأرض - كلامُنا عنهم يبتعثهم من الظلمات، يجعل كلامنا خفيفاً عليهم - كما يقول عمّ موسىَ الافريكي إذ يراهم عندما يحل محل بورغو المالطي أحياناً في وردية الليل، يأتون إليه من تحت الأرض، يدبّون على أربع ثم ينهضون على ساقين كأرجل المعز،

أيديهم شعراء نحيلة عظمية قد استطالت ودارت حول صدورهم مـرتين. صحيح؟ هل يمكن؟

تَهانف المخزنجي لنفسه بضحكة مستسرّة: يا جدع اعقلْ. هل هذا مـا يصدقه رجلٌ عرف الفلسفة وأدرك - بل هو يُبجِّل - قيمة العقل؟

من داخله ردّ عليه المخزنجي الآخر المتربص، المتهوّر: اعقـلْ إنـت ياخويا.! أليست هذه كائنات اللاوعي - ما تحت أرض العقل؟ لماذا يجـب أن تظل هذه الكائنات تجريدات فقط، وتصورّات لا قـوام لهـا؟ لمـاذا لا تتجسد؟ تأخذ لنفسها أجساداً لها كتلتها وجِرْمها ولهـا أشـكالٌ هـي التـي تختارها لنفسها خارج منطق العالَم المعهود؟

ثم عاد المخزنجي يقول: هل أنّ هؤلاء الكادحين، السارحين على وجه الأرض، الذين فيما يبدو كلهم مرح وحبّ للحياة هم سلالة الذين قيل عنهم إنهم يأكلون لحم البشر - أحياءً أو أمواتاً على السواء - ينبشـون القبـور ويتخذون من العظام الجافة والجماجم المنقورة أدواتٍ لاستحضـار الجـنّ والشياطين، الكفرة منهم أو المؤمنين، يخطفون الأطفال من أمـام بيـوت أهاليهم أو من الغيطان وشوارع المدن والكفور، يسـلقونهم علـى نيـران مواقدهم ويأكلون لحمهم غضاً طرياً عذب المذاق؟ هل أجدادهم حقـاً هـم الذين ذهبوا طعمة لنيران محارق محاكم التفتيش وآباء الكاثوليك في أوربا ما يسمى بالعصور المظلمة؟ وعندنا هل جداتهم الغانيات هنّ اللاتي حكـم عليهن الوالي محمد علي باشا بمنعهن من الرقص في الموالد والأفـراح، والقبض على من تضع رجْلها في الأسواق؟

زعم المخزنجي لنفسه إنه لا يحفظ التواريخ، لماذا حفظ تـاريخ هـذا القرار: في ١٨١٠، كنّ يرقص رقصة النحلة والدبّور، يخلعـن الطراحـة ومنديل الرأس، يندمجن في الدور، لسعة النحلة من داخل الثيـاب طنـين

الدبّور من الفخذين وما بينهما إلى البطن الخمران، ينحنين ويتأودن وأنين المتعة وألم اللدغة المتوهَّمة ممتزجان بشهقات شبقية، ينزعن الشال الهفهاف عن الأكتاف الناعمة المدوّرة السمراء يفتحن الجيوب المشقوقة عن نهود مترعة قائمة نافرة، رمّان محكم الاستدارة منتصب الحلمات، أو متهدلة بعجين وافر الخصوبة يملأ العين إن لم يملأ اليدين، عساكر الوالي يتركون الجيش - ما صدّقوا! - لكي يتبعوا السيرينات المُغويات عسيرات المنال أحياناً وأحياناً مستحيلات الوصال إلا لمن شاء الهوى. الوصال؟ أليست هذه كلمة من مفردات الأغاني الشائعة في عشرينيات القرن الماضي؟ الوصال؟

ما الذي يحفز المخزنجي إلى البحث عن تواريخ هؤلاء الناس الذين يحومون حول المخزن، تظهر جماعة منهم ثم ترحل، لكي تأتي جماعة أخرى؟ أم هي الجماعة نفسها، ترود هذه الأرض كأن فيها ما يستدعيهم ويجذبهم ويعدِهم بوعودٍ غير محددة ولكن لا نهاية لغوايتها؟

رائحة دخان فغمت المخزنجي فجأةً، تتصاعد من الكانون الذي صنعتْه مانورة وريم وأم رضوان: أحجار وبقايا طوب وحطب جافّ من نباتات الصحراء اليابسة والروث الجاف الله أعلم كيف جمعن نساير الخشب القديم وسعف نخلٍ صوّحته شمسٌ لا ترحم وأوراق جرايد صفراء لها رائحة نفاذة تختلط بعبق لحم مسلوق يغلي مَرَقُه في القِدْر الفخّار السوداء. أيّ لحمٍ هذا الذي يسوّونه على الكانون المرتجل، على وشّ الصبح؟ لحم معز؟ أم لحم غضّ طريّ آخر لا نكاد نتصور أن هناك من ينتهك به قانوناً أبدياً - غير مكتوب - هل هو قانون الأخوّة البشرية؟

هواجس المخزنجي النيّئة.

كان الريّس نونو وعمّال المخزن قد وصلوا.

رَوَّح يورغو الكونستابل صاحب ورديّة الليل: أخذ المدقّ الحجريّ الآخر المتجه جنوباً حتى وصل إلى خط ترام المكس.

حل محلّه غفير ورديّة النهار عمّ موسى الأفريكي.

توافدت جماعة العتّالين: جابر طَبْأش، كامل معْزة، يونس مهنّي عبد المسيح، حميدو شورتي، مرسي أبو شنب، اسحاق سعد، السواد صبحي الصعيدي والشيخ المرشدي، وصلوا بربطة المعلمّ منهم الضاحك والعابس ونصف النائم.

كان الحاج متولي رئيس المخزن قد وصل بسيارة الشركة الشڤروليه الزرقاء منذ قليل، دأبه باستمرار، قبل الساعة الثامنة بدقيقتين ثلاثة، لا يتأخر عن ذلك ولا يتقدم، تضبط ساعتك عليه، ونزل من السيارة وهو يمسح نظارته السلْك المدوّرة – دأبه أيضاً باستمرار – بمنديل ورق يبسطه بعد ذلك ويطويه أربع طيات مضبوطة ويضعه في جيبه – للعُوزة – وهو يصعد سلالم المخزن إلى مكتبه ذي الواجهة الزجاجية في الدور العلوي، لا يكاد يتخذ مجلسه حتى يرفع سماعة التليفون ويتحدث إلى زوجته بصوتٍ خافت أبويّ تشوبه نغمة ملل يوميّ، يعقبها على الفور بحديث إلى صاحبته – يعني "رفيقته" كما كان يُقال بالاسكندراني – هامسٍ رقيقٍ مُداعبٍ لا يخلو – كذلك – من نبرةٍ أبوية حنون.

قبله بدقائق كان قد وصل موظفوه تباعاً، بترام المكس أو أوتوبيس الدخيلة، رامي أفندي شَنَنْ مساعد المدير، عبد الفتاح حسين طالب الحقوق

زميل المخزنجي، چو سكلاريدس زميلهما الجريجي الوسيم الغندور، هنري وكيل المخزن، وأخوه وليم.

ضجة بدء العمل في المخزن رقم ٦ إذ تصل الشاحنات الفورد الضخمة من الممر الضيق الذي يُفْضي إلى باب المخزن.

السيارات بعمولتها المرتفعة من البضاعة الآتية للتوّ من المينـــا، تكـــاد جوانبها تحتك بسور المخزن من ناحية، وسور المخزن المقابل من ناحيـــة أخرى.

الونش يزوم ويزمجر وتهتز قاعدته، الجنازير الحديدية المفتولة ترتفـــع ويشتد قوامها وتتوتر مستقيمة ثم تهبط بحسابٍ دقيق.

الريس نونو يهتف بعِزم صوته الذي اعتاد سطوة الرياســـة والقيـــادة، يوجّه عم علي الونشمان.

– نُصّ بيرة عندك يا عمّ علي، على إيدك، إيـــوه.. كمـــان.. كمـــان. ثـــم بصيحة مفاجئة:

– بسّ. عندك.

يهبط أزيز موتور الونش قليلاً إذ تنخفض قوته، تلتفّ الجنازير بالصناديق الخشبية الضخمة التفافاً محكماً، الريّس نونو وجـــابر طبـــأش وصـــبحي الصعيدي والشيخ المرشدي هم الموكلون بتثبيت الجنازير حـــول الحمولـــة حتى إذا اطمأنوا إلى توازن الحاوية وضبط ثباتها فـــي الجنـــازير، هتـــف الريس نونو مرة أخرى:

– نُص بيرة عندك يا عمّ علي.. يا واشْ ياواشْ.. كده أَلِسْطه.

وعلى رغم تكرار الروتين اليوميّ، مراتٍ عدة كل يوم، تثبت العيــون، بقلق وترقّب، على الحاوية إذ تتمايل بأهون اهتزاز وهي ترتفع قليلاً قلــيلاً ثم تصعد بقوة الرفْع الوثيق فإذا وصلت إلى الفتحة العريضة كان بانتظارها العتاولة القادرين على جذبها إلى الداخل وتخليصها من قبضـــة الجنـــازير وجرّها من قاعدة الونش إلى أرضية المخزن، يتعاورها كامل معزة ويونس مهَنيّ وأبو سنّة من ناحية، وإسحاق سعد وعم مرسي أبو شنب والواد أبــو صبحي التلاجة من ناحية أخرى.

- هيلا هوب، يا مرسي يابو العبّاس.

ترتفع الحاوية الضخمة الآن على الأكتاف القوية حتى تتخـــذ موقعهـــا أخيراً على الرصّة الداخلية التي تعلو شيئاً فشـــيئاً فـــي انتظـــار الـــدورة المُعاكِسة: التحميل على الشاحنات الخارجة إلى السوق.

الفصل الثاني

كانت الشركة تشغّل طلبة الجامعة أو الخريجين الجدد، "مخزنجية". يعني مساعدي أو وكلاء مخزن، على سبيل توفير المرتبات والإفادة من الخبرة والثقافة في الوقت نفسه، وإن كانت أجرتهم الأسبوعية، يقتضونها كل سبت، أربعة جنيهات بالتمام والكمال، أجرة عالية بكل المقاييس.

يوسف المخزنجي يجلس إلى مائدةٍ صغيرة، من غير أدراج - صنع منها مكتباً بشكلٍ أو آخر، عليه الآن دفاتر العُهدة الضخمة جنباً إلى جنب مع كتب يوسف كرم وتوفيق الطويل وأبو العلا عفيفي، كشاكيل المذكرات، القواميس اليوناني واللاتيني والألماني، لاروس والمحيط وأكسفورد.

قال لي صديقي توفيق عبد الرحمن مؤلف "قبل وبعد" و"الحفلة" و"أيام الثلاثاء":

- ما أخبار الغجرية؟

قلت: المخزنجي أغلق المخزن عليّ، لا يريد أن يفتح.

ظل المخزن مغلقاً حتى فتح الله علينا جميعاً.

الغجرية هي التي جاءت: ملكة الغجر فاحشة الجمال، فاحشة السطوة، تمسك بيدها ريم الجميلة النحيلة ناعمة الجسد الذي يكاد يكون غُلامياً مع كل أنوثته اليانعة:

- الحجني يا باشمُهندس! المبروكة أم رضوان صوابعها اتحرجت، النار هبت مرة واحدة على غفلة، يا حفيظ، لسعتها. ما عاد طبّنا نحن نـــافع ولا شافع، ملّسنا عليها، رَجينيها السبع رَجْيات باسم الواحد الأحد، باسم النبـــي عليه أكمل الصلاة والسلام، حَرْجها ما طاب. ألاجي عندك يا باشـــمهندس معجون الحريج اللي بيجولوا عليه سره باتع.. وحياة النبي؟

يشعّ من وجهها كامل الاستدارة أسيل السمرة نور داخليّ يأسر من يراه يقسره على أن يثبت عينيه بها، لا يملك أن يحوّل عنها نظـــره، طرحتهـــا الشفافة السوداء نقيّة السواد تنسدل على كتفيها، تترك خصلة مـــن الشـــعر الناعم تتوس على جبهتها العريضة متمردة لا ترتد مهما ظلّت تردها بيدها الرفيعة الصلبة طويلة الأصابع.

قالت وهي تلتفت إلى ريم بلهجة سريعة:

- ريعي ريم، صبرك أحكي للباشمهندس.

كانت ريم تتوفز على ساقيها المخروطتين بانســـيابٍ غـــضّ وممتلـــئ، مكشوفتين تحت جلابية خفيفة ملوّنة، وإلى ساقيها تتواثب صـــانوه تـــزوم بغضب مكتوم، بوزها الأسود حالك السواد الممتد إلى أمام يصدر عنه هذا الصوت بين الهرير والزمجرة المحبوسة.

كيف عرف الغجر أنّ في المخزن، في مكتب الحاج متولي بالتحديـــد - صندوق الإسعافات المعهود، أبيض قد بهت لونه قليلاً نحو كهبـــة فاتحـــه، عليه الهلال والصليب الأحمر، فيه المعتاد: صـــبغة الميركـــروم، اليـــود، الشاش الطبّي، القطن، زجاجة الكحول الأبيض، زجاجة الفينيـــك الغامقـــة نصفها ملآن، أنابيب الفولتارين والهيموكلار، علبة الأسبرو والألكسوبرين، البنادول، أنابيب درمازين للحروق وزجاجة الديتول.

دار بذهن المخزنجي – هو دائماً واسع الخيال، فيما يبدو، مستعد على الفور لتقليب الاحتمالات تفسيراً لحدثٍ واحد بسيط – أن للغَجَر عميلاً أو أكثر من بين عمال المخزن، هل هو فتحي الكانتين، حكيم النجار أو حتى الريس نونو نفسه – ربما، ما المانع – أو الواد فتحي الصعيدي.. المهمّ أنهم – الغجر – يعرفون، فيما يظهر، خفايا المخزن.

بخطوات ثقيلة وكأنها مترددة، رغم أن المسألة إنسانية بسيطة، دخل المخزنجي مكتب المدير، حيّاه واستأذنه بحركةٍ من رأسه ويديه، فتح صندوق الإسعافات الأولية، دقق النظر في محتوياته، التقط أنبوبة الدرمازين.

قال لمانورة: ابقي رجّعي الدوا تاني بعد ما تدهني بيه الحرق، يا دوبَك تِلَحْوِسي الحتة بِشْويش ما تغرقيش الدنيا، يا دوبك خفيف يعني..

– عارفة يا سيدنا لفندي والنبي عارفة. يجبر بخاطرك ويعلّي مراتبك وينوّلك مرادك..

النظرة الضارعة الشاكرة الفاهمة فيها مزيج من التوسل والامتنان والغواية شقّت قلب المخزنجي، لكن ما هصر جوانحه هصراً – على الفور – ذلك التماثل الخارق – مع التناقض الواضح – بين المرأة ناضجة النسوية في أوج جمالها، في ذروة عمرها، وبين البنت التي تبدو له صبيانيةً، بكراً، عذراوية الأنوثة، وما طاف بحدسه، من غير أن يجد له مبرراً أو سبباً، أنه إلى جانب التماثل بينهما، ثَمَ تقاتُلٌ كامن متربص، إلى جانب الحدب البيّن من الملكة فائقة الجمال ضارية السطوة، على أختها الصغيرة، ثَمّ غيرة مكتومة يختلج بها الجسد المدرّب المكين نحو براءةٍ تكاد تكون طفليّة، لكنها براءة تنطوي أيضاً على مكرٍ واثقٍ من قوته غير المعلنة: ريم آخر العنقود – السكر المعقود الذي يجري به المَثَل المعهود –

من بين إخوة وأخوات سوف يعرفهم المخزنجي واحداً واحداً واحدةً واحدةً: اعتماد وعالية وعايدة، عبد الرحيم وعلوان وعصام، سوف يعجب قليلاً إذ تتسلل هذه الأسماء المفترض أنها "راقية" أو "مثقفة" إلى قافلة الغجر الضاربين على وجوههم في براري أرض الله الواسعة الحوشيّة: عصام؟ عايدة؟ قال لنفسه، فيما بعد، أهذه أسماء غجرية أم أسماء غجر مسّتْهم عوادي المدنية؟

سوف يعرف المخزنجي أن عمران زوج مانورة - الذي لن يراه قط - في سجن الحَضَرة، قضى فيه حتى الآن عشر سنوات من عقوبة المؤبد التي حكم عليه بها إذ قتل أخته عزيزة ودفنها تحت ماء الملاحات الراكدة منتن الرائحة، تحت الهِيش المتكاثف، وما من شاف وما من درِي، لكنْ عيسوي زوجها الفلاح الذي كان يزارع على عشرة فدْن من أراضي أبيس المستصلحة، كان قد هام بها حباً وفتنته عن أهله وناسه، ترك قريته ليهيم على وجهه وراء قافلة الغجر، لا يملك أن ينضم إليها، فلاح غريب منبوذ، ولا يملك أن ينأى بنفسه وبامرأته المتمردة على قبيلتها - هي أيضاً - عن الركْب. يتبعان القافلة دون أن يستطيعا اللحاق بها ولا أن يقطعا الحبل السُرّيّ غير المرئيّ الذي يربط عزيزة الغجرية بأهلها. أمّ رضوان المبروكة ترسل اليها ما تيسر من أكل وشرب مع عصام الصغير، بين كل وقفة وأخرى على نجعٍ أو قريةٍ أو مضرب. قتلها عمران وقتل عيسوي بالمَرّة، دون كبير مبالاة، أهل الفلاح بلّغوا البوليس والنيابة وكان للقضية شنّة ورنّة في نواحي أبيس.

المخزنجي المثقف الذي يدرس الفلسفة في جامعة فاروق الأول حلّت في بدنه روح عيسوي.

من أول نظرة - بالفعل - كان قد هام بريم حباً وفي اللحظة نفسها كانت مانورة قد أثارت في جسده الفتيّ كوامن الشهوة - أَثَمّ فارق حقاً بين الحبّ

والشهوة هنا؟ كأن الغجرية القوية المستوية على عودها المكين وأختها الرهيفة عذراوية الشكل قد امتزجا معاً في روحه كياناً أنثوياً واحداً، أنثى تموء وتتأود ويتمدد جسدها إذ تتمطى، شعرها الفاحم قد اكتسب اللون المشمشي الضارب إلى حمرةٍ خفيفة.

لم يعد المخزنجي يقبل الحلم، لكنه يريده.

مخالبها خرجت من مخالبها الخفيَة الطرية في السيقان التي التفّتْ حوله، حيات ناعمة وسميكة وحانية، المخالب لا تكاد تكشط إهابه إلا على أهون وجه، بل يجد في هذا الاحتكاك الرفيق نوعاً من الالتذاذ لم يكن قد أَلِف حسه. نعومة التفاف سيقانها الكثيرة المدوّرة تضغط حنايا جسده الظامئة إلى الملاسة النسوية وفي مسامعه هسيس مستسرّ يستثير سمادير سرائره. أذرعها وسيقانها الإنسانية مأنوسة يستنيم إليها. تهبّ عليها - عليهنّ معاً - عاصفة الرياح الشمالية لكن النخلة الشرقاوية الصعيدية إذ يتصادم سَعَفُها بعضه ببعض تحت سياط العاصفة تظل صامدةً حتى إذا مال جذعها وانحنى عاد فاستقام بعنادٍ لا يعتوره وهن. صفير الرياح يستطير بها وبهنّ، الأجساد الرقطاء تتلوى لكن لا تنصاع لقساوة السحاب الأسود المثقل بنذر النحس، تحت النخلة السامقة تتواثب الثعالب والضباع: أنوبيس متكثّراً متعدد التجليات قد انفلت من أسْر مثواه يجوس الآن في طوايا الأجساد يتساقط منها الرُطَب جَنِيّاً. المخزنجي يسمع - بلا شك - صوت النخلة هامساً تارة وجهيراً تارة:

- لن أنكسر أبداً مهما انحنيت أمام العاصفة.

تكبس عليه ضراوة الحيّات، بأصابعها الطويلة النحيلة، تستدير بأوصاله. تستدرّ لبن شهوته المحبوس.

العنف الشبقيّ هو نفسه الحنان الشبقيّ، صعودٌ وتسامٍ صوفيّ في الآن نفسه إذ ينشَقُ الشذَى الشرود يستطير الشر - تتشقق النشوةُ أشلاءً مشتتة ترتعش بالأشواق ليس ما هو بسبيله مضاجعة تشريحية ولا هو ولوج آليّ بل استسلامٌ لأنفاس الإله حتى تستكنّ إليه السماوات نفسها في سديمِ سلامٍ لا وصف له ولا سمات. ليس ثَمْ صمت "ليس" بل سيمفونية "أيْس" منسابة ثم صاخبة ثم رقراقة في تساقُط قطرات من المن والمَنيّ والسلوى. الحلم يجسد الحقيقة. أية حقيقة؟ ويكسبها جسداً. كتلة الجسد تتطاير شعاعاً مزَقاً من سحابات بيضاء رقيقة جداً تسبح على ثَبَج السماء النورس البيضاء السوداء تنقضّ على موج الجسد تلتقط منه سمكة غير مرئية. رفرفة أجنحتها في ارتفاعها وانخفاضها إشارة إلهية.

ريم.

ثم يأتي انفجار الشهوة دون أن يعقبه انتكاس الخُبوط.

الاستثارة النهائية من عمل الخيال الجسدانيّ لا من كتلة الواقع الصلبة. قد مثل الساعة جنسٌ عذريٌ سماويّ بين الصعيدي الإسكندراني وبين السنيورة الصغيرة التي كانت جوانحه تنطوي عليها، كما تنطوي في الوقت نفسه على امرأة الحرية والنضج والعرامة الحارّة الاستوائية في أدغال الجسد وساقانا الروح وسهوبها.

صفّارة الباخرة التي تدخل الميناء الغربية حيزومها يشق جسد الموج الأزرق الداكن الذي كان بلون الحلم.

الأشرعة المبسوطة على آخرها على صواريها السامقة تُطوَى، تلتف الحبال سميكة الضفائر حولها، المجاذيف ترتفع من على الزبَد الأبيض المتطاير، تمتد السقالات الخشبية المصنوعة من أرْز لبنان بين رصيف الميناء الحجريّ وجسم السفينة التي غادرت روما منذ أسابيع وجاءت من

صيدا وصور. وضعت مراسيها أمام البيليوتيكا الكسندرينا العتيدة، صعد النوتيُّ من بطن الحوت الخشبيّ الراسي، تسلق السقالة السميكة وسقط، تقريباً، على أرضية الفسيفساء الملونة، عليها لوثات من البلل وبقايا طحلب يجفّ ببطء، أمام البيبليوتيكا، سلّمَ كاليماخوس المقرّر المفروض على كل سفينةٍ تدخل الميناء، مخطوطة أصلية واحدة على الأقل. لم يكن أرخميديس قد عثر بعد على ضالته ولم يكن قد جرى في الشوارع يهتف، وجدتها.. وجدتها.

رصيف الميناء اليونانيّ الرومانيّ القديم تآكلت صخوره الصامدة العريقة، موج الميناء الغارقة لا يرحم مازال يخبط صفحته بإصرار، تصاعدت عليه طحالب داكنة الخضرة، أبدية، تهدلت على النُقَر والفجوات مشعثة الحوافّ في جسم الصخر.

تنزلق المياه صفحةً ملساء منبسطة صافية على صدر الصخر الفسيح ثم تنساب نازلة تسقط في غير يأس من الصعود ثانيةً باستمرار تتسلّق الصدر الصخريّ الممسوح، من غير انتهاء.

مانورة الغجرية التقطت من على الرصيف المنسيّ المهجور شظايا مشعّثة الحواف عليها نقوش غائرة - مازالت قوية الوضوح - لطيور وثعابين وخطوط مياه مترقرقة ورسوم رجال صغار الجسوم وقرص الشمس الساطع مكرراً عدة مرات وما لا يعرفه أحد من الخطّ السحريّ العريق، تصنع من الشظايا الدقيقة إذ تلفّها بأوراق اللاورا التي لا تذبل ولا تجفّ أبداً أحجبةً وتعاويذ تقي من العين وتفكّ الحبوس وتعيد للرجال المربوطين فحولتهم المفقودة وتُميت في القلوب لذعة الحب الملهوف أو تؤججها بشعاليل لا تنطفئ.

كان المخزنجي يقف مع عمّ علي الونشمان، بجانب نافذة الونش العريضة، على يمينه، إلى الجانب الآخر من مكتبه المرتَجَل المفتوح المحمّل بالمراجع والقواميس ودفاتر العُهدة، يقوم الزير مدوّر البطن يشرّ جداره الناعم بطبقةٍ خفيفة من الماء. كان فتحي الكانتين قد أصر على أن يحتفظ بهذا الزير مليئاً بماء الحنفية على سبيل الاحتياط لانقطاع المياه عن المخزن، وهو ما كان يحدث كثيراً وخاصةً في أوقات الوضوء قبل الصلاة، وعلى الأخص أيام الجمعة - كانت عطلة المخزن الأسبوعية الأحد، مثل معظم الاسكندرانيّة.

ينتظر المخزنجي - كعادته كل صباح - أن يفرغ عم فتحي الكانتين من إعداد كوب الشاي الثقيل.

يتناهى إليه صوت جدلٍ يتصاعد من عند بوابة المخزن، عمّ موسى الافريكي، عمامته الكبيرة الملفوفة في عدة طيات متراكبة، بيضاء زَيّ الفلّ، تكاد تهتز على رأسه من انفعال، وهو يمدّ ذراعه في الأوفرول الأزرق الباهت المتهدل القديم، يحجز غجريةً كبيرة السنّ - كما هو واضح - عن الدخول، وهي تدفع ذراعه بنوعٍ من الأُلفة الجنسية، صوتها الخشن، رجولياً تقريباً ولكن فيه بحّة نسوية مغوية: إوعَ كده يا راجل خلّيني أدخل أشوف الباشمهندس. يا ستّي ممنوع، ما عندي أوامر، ما حدّ يدخل المخزن عاد، من غير إذن، من غير تعليمات، روحي يا ستّ الله لا يسيئك، ربنا يسهّل لَك عاد ويفتح لك باب الرزج من غير طريجنا عادْ، الله!

كانت المرأة تحمل على رأسها قفةً كبيرة، إحدى أذنيها مفكوكة أو مقطوعة، والأخرى يتدلى منها ذيلٌ قصير. في القفَة ما يبدو أنه زَفَر ظاهر للعيان مذبوح مسوّي - مشوي على نار الحطب الصحراوي، ضروري.

مازال الغفير والغجرية يتصايحان ويتدافعان على البوابة، في غضبٍ مفتعل كأنه مداعبة قَبْل - جنسيّة، صوتها يتموج في بحّته المثيرة: ما توعى كده يا راجل، ديهْدي، طبْ اطلعْ بلغَ الباشمهندس، سيبني بقى يا خويا، آه منك يادي الراجل..!

كانت شمس الصباح تسقط على وجهها الصبوح ما زالت فيه غضارة الصبا الآفِل البعيد على ما أورثه الزمن والحنكة وليالٍ ونهارات من الكدّ والشهوات: الأنف كبير والعينان عميقتان وباسمتان مع ذلك، تحت الطرحة السوداء الثقيلة التي تظللهما. وكأنما بالفعل تستمتع بالجدل والأخذ والردّ والجذْب والدفْع، تأخذ نصيباً من التماسّ الجسديّ مع الصعيدي صلب العود الذي يقف أمامها، الأوفرول قد اشتد وتصلّب بين ساقيه القويتين، والمرأة المحنكة تعرف ذلك الاشتداد، وترضَى.

لمحته الغجرية، من على البوابة، فهتفت به:

- يا باشمهندس يوسف، يا باشمهندس، أنا أمّ رضوان، أمّ مانورة وريم، رايداك يا باشمهندس.

لم تَفُتْ عليه - ولا كانت هي تريد أن تفوته - دلالةٌ واضحة في أنها رايداه، حاول أن يخفي ابتسامة عابرة، ونادى على الغفير:

- يا عم موسى.. سيبها تدخل.

كان عمّ علي الونشمان يرقب المشهد، هو أيضاً يُخفي ابتسامةً مستمتعة تحت شاربه الكث الذي شابه شعثٌ أشيب أملح، متهدلاً على فمه الواسع.

دخلت الغجرية مليئة الجسم مليئة العينين.

وكأنما على غير إرادتها ضغطت بجسمها المكين على عمّ موسى الأفريكي، لا تنظر إليه ولا حاجة، بل تدخل المخزن كأنما تفتح أسوار مدينة طال حصارها الآن لان لها قيادها.

طلعت الغجرية السلالم إلى "مكتب" المخزنجي في الدور العلوي، كما لو كانت تعرف الطريق من زمان.

كان المخزنجي قد أَوَى إلى مائدته - مكتبه، كما يلوذ المطارَد بحصنه الأمين، أزاح من على "المكتب"، قليلاً، دفاتر العهدة الكبيرة القديمة المجلدة بأغلفة داكنة صلبة فانزاحتْ كتب الفلسفة اليونانية، وكتاب عبد الرحمن بدوي عن نيتشة وكتاب تروتسكي عن الدولية الثالثة وبيانات السيريالية من عمل آندريه بريتون.

المائدة - المكتب، في ركنٍ من المخزن، وراء جدار مكتب الحاج متوليّ رئيس المخزن، وإلى الجانب الآخر مائدة رامي افندي شنن، المثقلة بدفاتر الوارد والصادر وفناجين القهوة الفارغة - مازالت في قاعها بقايا البُنّ الطريّ لعل الغجرية سوف تقرأ فيها بخته، ومنفضة السجاير المكتظة بأعقاب بعضها مازال يدخَن.

وراء مائدة المخزنجي، على الحاجز الخشبي بينه وبين مكاتب الإدارة، رسم بالقلم الرصاص، شارة الدولية الرابعة في المطرقة والمنجل ورقم ٤ بالخطّ العربي (أو الهندي؟)

دخلت عليه أمّ رمضان، باسمة العينين، فارْحة، واثقة الخُطى، هي نفسها حصينة وطيدة الأركان، حيّتْ بالعربي البلدي: عوافي يا باشمهندس، صباحك قشطه بإذن الله.

يوسف ردّ عليها بهدوء ورزانة (مفتعلة فقد أثارته المرأة) صباح الخير. فيه إيه، خير؟

قالت: أنا جايبالك حاجة كده مش قد المقام، النبي قبل الهدية.

جلست على أرضية المخزن الخشبية، على جنب، تحت ساقيْ يوسف الذي خجل قليلاً، سحب قدميه بالحذاء القماش المفتوح، من رجُوع بضاعة

المخزن، وحمد الله في سرِّه أنه كان قد غسل قدميه في حنفية الكانتين عندما وصل الصبح، خلع الشراب والجزمة الرسمي، وفرد أصابع قدميه في الجزمة القماش المريحة، ثم قال في سرّه: معلِش، هؤلاء الناس، على أي حال، يعرفون كيف يعيشون روائح الوجود، عبق الجسم الكثيف أو الرقراق، نكهة الهدوم التي اكتسبتها من جسوم لابسيها، دخان الكانون، شياط الحطب المحروق، فوح العشب الصحراوي جافاً أو طرياً، نفث الروث والزهومة الحيوانية على تنوعها وتراوح كثافتها، رائحة دورة النساء الشهرية المتميزة ورائحة مَنيّ الرجال العفيّة، روائح حميرهم وقرودهم وقططهم وكلابهم وعيالهم وشيوخهم.

لكنها لم تتركه طويلاً يسرح مع خواطره التي قال عنها لنفسه إنها ساذجة إلى حدٍ ما.

بادرت فأزاحت حِتّة القماش الملوّنة التي تغطي القفة. لاحظ يوسف لأول مرة أن يدها اليمنى ملفوفة بحتّة قماش ثانية من اللون نفسه، غير نقيّة وغير مبرّأة من لزوجة معجون الحريق الذي كان قد أعطاه مانورة بالأمس، فكّت عنها القماش وفردت أصابعها المكتنزة تحت الأظافر المقلّمة القصيرة، كانت الأصابع قد برئت وغدت سويّة من غير سوء، قالت: أصابيعي بقت زيّ الفلّ بصّ. وأخذت يده فجأة وضعتها على يدها، ارتجفت يدها رجفةً لا إرادية واهتز جسمها كله هزة لا تكاد تُحس، قالت:

– دكر بطّ فضلة خيرك. والله مقامك ندبح لك عِجلْ لبّاني. لكن العين بصيرة..

وضغطت يده على يدها.

ما من جدوى في أن يتمنّع المخزنجي عن قبول الهدية، برغبته أو رغماً عنه، على السواء. كان يعرف عبث المحاولة.

هذا رزق جاءه من السما.

خصوصاً الآن.

كان ظرف القبضيّة الأسبوعية، أربعة جنيهات وخمسة وثلاثين قرشاً وسبعة مليم، قد فُقِد من المخزنجي، وظلّ يفكّر كيف سيدبرون أمر معيشتهم طول الأسبوع القادم، كانوا يعيشون - كما يقال - من اليد للفم، أو هاتْ يا سدْرَه وَدّي يامدْرَه، كما كان أبوه يقول بلهجته الصعيدية العذْبة، وكيف سيقَول لأمّه وأخواته إن الفلوس ضاعت منه.. "يادي الخيبة..! يالهْوي..! إلى آخره.. سأل أمَّ رضوان: الطير اندبح ع الأصول يا امّ رضوان.. سمّيتوا عليه؟ سوف يذهب الآن بدكَر البط - على الأقل - إلى بيتهم في راتب باشا، أمه سوف تعيد تنظيفه وغسله بالدقيق والخلّ والماء، سوف تنزع من جلده بالملقاط جذور الريش العنيد المغروسة في اللحم، بالواحدة، بصبر لا نهاية له، وسوف تسأله بالتأكيد، لن يفوتها ذلك أبداً، عما إذا كان الطير قد سُمِّي عليه باسم الله عند ذبحه، وسوف يقول لها بالفم المليان نعم.

قالت أم رضوان وهي تحدجه بنظرتها الغائرة:

- اللي مضيّعه، يا ضنايَ، ملِوّعه..

قال بشيء من الضيق، ربما من الغضب:

- يعني إيه يا وليّه؟

هل تعرف الغجرية أن أجرته الأسبوعية قد ضاعت منه، لا يدري كيف، أم أن الأمر أكثر من مجرد أنها تعرف؟ هل للغجر يد في هذه الحكاية؟ هل هم - أو عملاءٌ لهم - هم الحرامية؟

قالت: تيجي معايَ في حوش العفريت. هو دا المطلوب. آدلّك ع المرغوب.

المخزنجي الذي يلوذ بالعقلانية ولا يقدس ولا يُكرّس إلا العقل قال:

- ما المانع؟ هل أخسر شيئاً إذا جربت؟

مع أنه كان يعرف تمام المعرفة أن هذا النوع من الرهان: "ماذا أخسر إذا جرّبت؟ حتى إن لم أكن على اقتناع أو حتى على فهم.." هذا النوع من التفكير هو المضادّ للتفكير، المضادّ للعقلانية، الذي يدفع إلى اللواذ بالغيبيات والسحر والإيمان بالخرافات وما وراء الواقع المبَرر المرئيّ المجسّم المفهوم: ماذا أخسر لو جرّبت؟ الإيمان، الوثبة في الظلام، عوَضاً عن النكران؟ جنّة اليقين ليست إلاّ في هذا العالم، لا فيما وراءه.

ملكوت السماوات هنا، الآن.

هذا هو الرهان.

مدعوماً بالعقل وبالبرهان.

هل هذا في النهاية هو الرهان الخاسر؟

لكنه قبِل الرهان.

كأن كل رهاناته خاسرة، ويقبلها. في مجرد قبولها نفيٌ للخسران، بل أكثر من ذلك، قبولها هو المكسب الوحيد، أياً كانت النتيجة.

نزل السلالم المعتمة الآن، وراء المرأة التي بدا ظهرها الضخم، مع الردفين الكبيرين، مدوراً ومليئاً بالغواية.

سارا معاً، تحت أنظار عمال المخزن، عمّ موسى الأفريكي، خاصةً، يحدق إليهما، بشيء من الغيظ، وحسٍ من الهزيمة.

قال الريس نونو، من غير كبير تورّع:

- على فين العزْم؟ ما تخدونا في سكتكم..!

ردّ عليه المخزنجي نصف جادّ، نصف هازل:

- المرّه الجاية يا ريس نونو.. لما نرسَي لنا على برّ، ونفقس الفولة.

بادر الريس نونو:

- شدّ حيلك يا عمّ، قلبنا معاك.

قال المخزنجي:

- حطّ في عينك شوية ملح يا خويا. النهارده الخميس.!

كان المخزنجي قد عقد اتفاقاً غير مكتوب مع الريس نونو وعمال المخزن: أن يتغاضى عن المخالفات الخفيفة، من أي نوع، بما فيها السرقات الطيّارى التي سوف يدرجها تحت بَنْد "التلفيات أثناء النقل والتخزين" على أن تكون معقولة: تلفيحة، باكو أمواس حلاقة، نُصّ دستة شرابات، فوطة ولاّ اتنين.. لكن محاولات الإتلاف المتعمدة، بقصد التهليب على كبير، مرفوضة وسوف تأخذ مجراها حتى تصل للنيابة، بعد بهدلة البوليس المعتادة.

وينطبق ذلك على المخالفات الخفيفة التي قد تحدث في المخزن، أياً كان نوعها، ربّنا أمر بالستر..

الفصل الثالث

كان المخزنجي، في الأول، خجولاً ومنطوياً على نفسه إلى حد كبير.

لم يستغرق الأمر إلا أياماً معدودة. عرف من تلقاء نفسه، دون أن يعلّمه أحد، أسلوب العمل، والتعايش، مع أولاد الأحمدات الاسكندرانية أو العتاولة الصعايدة على السواء. عرف كيف يشتمهم – بنوعٍ من الأخوّة المستترّة، ومن غير شرّ – بالأبّ والأم والمثالب الجنسية: ما تهمّ يا واد يا خول إنت. أصلب طولك واعتل الصندوق يا جدع بلاش علوقية، نعم يا ك.. أمك؟ استرجل يا وله وشيل..! وهكذا.

سرعان ما عرف عمال المخزن – وعلى رأسهم الريّس نونو – كيف يحترمون في المخزنجي رجوليةً غير متوقّعة منه في الأوّل، أدركوا بحس أولاد البلد أنه في صفهم وليس في صفّ "الإدارة" تلك الغامضة البعيدة، التي تقبض، في النهاية، على مصائرهم.

خرج المخزنجي ومعه المبروكة أم رضوان تسير خلفه ببضع خطوات، قالت له:

– من ورا المخزن يا باشمهندس، اطلع على المدقّ التاني جنب الهجانة، على طول جنب مسقي الجمال، واحود شمالك، بعد الكنيسة القديمة.. خلاص، آدي احنا في حوش العفريت.

قال: فين؟

قالت: يُوه. حوش العفريت.

انحدرت الأرض بهما فجأة، تدهورت الأرجُل في النزول على الرمل المنهار، والأحجار المتفككة، انفسحت أمامها، بعد الدُحْديرة، أرضٌ تبدو محروقة: صخور داكنة سوداء ناتئة من الرمل والحصى والزلط، ترتفع إلى يمينها كُتَلٌ خشنة من الحجر الرمليّ، تنفتح فيها فجوات مظلمة، وتتعاقب فيها طبقات من الحجَر متراوحة القوام ومتباينة ظلال الألوان. قالت له إنها لا ينكشف عنها الحجاب إلا في هذه الأرض التي كانت مثوى فرع من قبيلتها الأصلية، قبل أن تتزوج من فرع أبو رضوان - الله يبشبش الطوبة اللي تحت راسه - وتنحدر الحال بأهلها الذين رحلوا هم أيضاً في بلاد الله لخلْق الله، خلا حوش العفريت من سكانه إذ جفّت البئر التي كانوا يستقون منها، انقطعت العُرىَ بينها وبين أهلها الذين لم تعد تعرف لهم طريق جُرّة، قال المخزنجي: حوش العفريت؟ قالت المبروكة: ما هو أصل اللي عمل الدُحْديرة دي كلها هو اسم الله الحافظ يجعل كلامنا خفيف عليهم الجنّي غطرموش الذي ظل محبوساً بأمر طهورث ملك الفُرس ألفيْ سنة، ولما جاء الملك سليمان بن داود أفرج عن كل الجنّ المحبوسين، بأمر الله، بشرط أن يؤمنوا بالله، جاء الجنّي غطرموش على بساط الريح من جبل قاف، أعجبه هذا المكان، بسطه ودوّره وغار به ودحاه، نفخ فيه فاحترقت حجارُه وطار الرمل والحصى شعاعاً، وبعد وصول جدّ القبيلة الأول من بلاد الهند والسند التي تركب الأفيال، سكنت القبيلة حوش العفريت، بارك الله فيها فتكاثرت وتناسلت وملأت الأرض وذهبت قوافلها كل مذهب في بلاد الله، تبقى لحوش العفريت مزيةٌ ليست لموقع آخر، هنا يستجيب الغيب وينكشف المستور وينفكّ الرصَد. هذا ما جرى وما كان، قالت المبروكة أم رضوان.

ثم قالت ما تَرْجمتُه بالفصيح: يا باشمهندس. أنت هنا من اليوم بين أهلك وعشيرتك لا تتردد أن تأتي إلى هنا كلما ألمّ بك مصاب أو ادلهمّت أمامك الخطوب أو نالت منك الحيرة واللدد، بإذن واحدٍ أحد، سوف تجد هنا نجدةً وملاذاً، أينما كنا – نحن – في أرض الله الواسعة، سوف نسمع نداءك، نلبي مرغوبك وتنال مطلوبك.

لمح المخزنجي على مدى الشوف في آخر الدحريرة الفسيحة أشباحاً غامضة من جماعات الغجر، تحت خيامٍ واطئة من جلد المعز، لاح له كأنهم في أسمالٍ خلَقة، لكنهم خِفاف الخطو يتخطرون في خيلاءٍ أو في خفرٍ. خيّل إليه – أم أن ذلك كان حقيقةً بالفعل – أنهم يهوّمون بأغانٍ مرحة الإيقاع سريعة النغَم.

كان في الدحديرة مسقًى للحمير والدوابّ، محفور في الحجر، يترقرق فيه ماءٌ صافٍ داكن اللون.

نبحت كلاب من بعيد نباح التحذير والتخويف، ثم آبتْ، إذ نشقت ريح المبروكة، إلى هرير الترحيب.

على آخر الدحديرة قامت أحجار ضخمة صلدة من سور القلعة المهدومة القديمة، لم يبق منها إلا هذا الجانب من السور العتيق، ووراءه تلّ صغير من أحجار متهاوية غاص نصفها في الرمال.

وقفت المبروكة فجأة تحت السور، أخذت تتمتم بما لم يسمعه المخزنجي.

تراجعت شكوك المخزنجي وانحسرت ملكته العقلانية إلى جَزْرٍ خلفيّ من روحه، طفا في قلبه نوع من اليقين المتردد لكنه يقين.

قالت له المبروكة:

- فيه عدوّ ليك مانتَ داري بيه يا نور عينيّه، هو اللي سرجك، لكن من خيبته خبَّي اللِجية. المسروج يا ضناي تلاجيه - بإذن واحد أحد - تحت زير المَيّة.

هل كان غريباً بعد ذلك أن رجع المخزنجي يومها مجبور الخاطر، جيبه معَمّر، وفي جعبته - يعني في كيس قماش من أكياس المخزن - ذكر البط المذبوح باسم الله، وأنه في تلك الليلة شرب نصف خمسينية كونياك بولاناكي جناكليس وشربت معه عائلته الصغيرة، كأنهم كانوا في ليلة عيد.

وجد المخزنجي نفسه وقد غرق في حشودٍ متكاثفة متماسكة من الناس، تهتف وراء قادة المظاهرة الذين صعدوا، أو صعدت بهم الأيدي، إلى الأكتاف، فوق رؤوس المتظاهرين، وفوق الخوذات البلاستيكية المقوّاة المقوسة المثبتة فوق رؤوس صفّين من ذوي البِدل السوداء ممسكين بالعصيّ المكهربة المهدِّدة والدروع الخشبية.

كان شباب كلية الحقوق أول من تدافع للخروج، عند محطة ترام الشاطبي التقت جموعهم الهادرة بموجة عارمة من شباب كليات الآداب والتجارة، اقتحموا الحصار الهشَ الذي أقامته كوردونات غير منتظمة تماماً أمام أبواب الكلية، أمام البيبليوتيكا الكسندرينا، تحت أنظار المسخ البطلميّ الجرانيتيّ العملاق الذي كان قد استخلِص من البحر عند قايتباي.

كان الطلبة قد تداعوا للتجمع عبْر رسائل الموبيلات المكتوبة أو الصوتية. سرعان ما التحمت مظاهرات عمال الفبارك القادمة من كرموز وراغب باشا عن طريق شارع إيزيس وشارع النبي دانيال وشارع العطارين، ومظاهرات بَحَري والأنفوشي المتحدرة من شارع سعيد وشارع التتويج، والتجمعّات المتدفقة الآتية بفروعها المختلفة من محرم بيه، من

ناحية، والسيّالة والورديان من ناحية أخرى، عن شوارع الخديوي والفراهدة ومحطة مصر.

وسط البلد غمرته أمواج البحر البشريّ الغاضب اللجِب الذي تلهمه في التجمع والتحشّد متعةٌ محفوفة بالخطر - ومن ثم أعمق وأكثر حرارة - ويجد في الهتاف والدويّ والدفء بل التلاصق المحتدم تنفيساً عن كبتٍ رازح، تحرراً من صمتٍ كامد كابٍ مختنق في الصدور، انطلاقاً من قبضة قهر لم يعُد يُطاق.

مانورة عين الليل واقفة على رصيف محطة ترام الشاطبي.

قالت: يووه.. الناس دول جُمْ منين؟

وضّاح الحداد استند إلى حائط المحطة، يبدو طويلاً جداً في جلابيّة سابغة تنفتح تقويرتها عن صديريه المفتوح بلا أزرار، عمامته الصغيرة أقرب إلى الغُبرة، تهدلت حواشيها على أذنيه، قال:

- بيسدوا عين الشمس

كان رهبوت الحشود الكثيفة المتدافعة، ووشيش تحركّها، يتسلل إلى القلوب بالروع ويسارع بها إلى نبضٍ متلاحق يهزّ الجسم.

قالت مانورة: الدرازي كله كليله لا عارف يحور ولا يدور.

الهتافات الصاخبة تدوّي، تتضارب، يرتفع مدّها وينحسر.

أولاد العاهرة، اطلعوا من إسكندرية والقاهرة.

يا حكّامنا اشتد الضرب عاوزين دولة تعلن حرب.

تقاطعها هتافات تردد، بصوت أجش، ما يهضب به الملتحي المرفوع على الأعناق، تتدلى ساقاه في السروال الباكستاني القصير الأبيض على أكتاف شخصين جسيمين اللحَى السوداء مفروشة على الوجوه المربعة الجهمة: لا إله إلا الله.. بوش عدو الله.. تهدر هتافات أكثر احتداماً وأقوى

متْناً، من مجموعة من الطلبة، بينهم فتيات سافرات، بلوزات نصف كُمّ وجيبات قصيرة على سيقان قوية: النصر المبين لشعب فلسطين. شارون مجرم حرب. تسقط الصهيونية الغاشمة.

اقتحمت الجموعُ الكوردون الذي بدا رفيعاً لا قوام له أمام اندفاعة الحشود التي صعدت من شارع شامبليون انضمت إليها مظاهرة كلية الطب وكلية الهندسة، امتلأ بها ميدان الخرطوم، تدور حلقات المظاهرة الضخمة الآن تحت العمود الروماني السامق.

نزلت من السيارات الفورد السوداء أرتالٌ مدرّعة، بخوذاتهم وهراواتهم، ونزلت معهم كلابهم الضخمة، متحفزّة متربصة نابحة كاشرة عن أنيابها تشد مقاودها من الأيدي الممسكة بها إذ تقتحم المظاهرة.

دوّت فجأة طلقات رصاص في الهواء.

توقف انهمار المظاهرة لحظة ثم حشدت قواها واخترقت الكوردون الأسود المحيط بالميدان. ما كان بإمكان أحد ولا شيء أن يقف أمام السيل الجامح الذي يغصّ به شارع السلطان حسين، الهتافات بأصوات مبحوحة وخشنة قد اكتسبت من تجمعها قوةً تهز القلب، الشتائم التي انطلقت مع الهراوات المرفوعة الهابطة على كلّ من وقعت عليه دون تمييز، أحد أولاد البلد الجدعان شدّ هراوة منهم، انتزعها وانهال بها على صاحبها، على ظهره وكتفه، لم تحمه درعه ولا خوذته ولا ضربات زملائه المحمومة ولا نبحات الكلاب وزئيرها وزمجرتها التي ضاعت في غمار الهتاف وحُميَّا التدفّق والتحرّر الجائح النابع من الاحتشاد وعنف التضامن في مواجهة العُدوان.

لم يعد المخزنجي يحس شيئاً في العالم إلا التوحّد الكامل مع الناس، الذوبان في حُمم بركانٍ صاخب لا يقف أمامه سدّ.

في غمار هذه الحميّا، أمام قهوة السلطان حسين على قمة شارع صفية زغلول الذي فاض بجماهير غفيرة آتية من محطة مصـــر ومحـــرم بيـــه، خطف بصره مشهد غجرية كأنما كان وجهها يملأ السماء، يحجـــب عنـــه واجهة سينما ريالتو وصالة البلياردو، تتأرجح فردتاً حَلَقِهـــا، مـــدورتين، عريضتين، مسننتيْن في أذنيها تحت قمطة رأسها الحمراء، بجانبها غجريّ طُوال فارع مشدود، ثم اختفى المشهد إذ ارتفعت خراطيم الماء من سيارات المطافئ الحمراء الرابضة على تقاطع الشارعين، انـــدفقت الميـــاه علـــى المظاهرة الكثيفة التي تأرجحت تحت وطأة الماء إذ انطلق كأنـــه صـــلب القوام، يخبط الأجسام المتضامّة المتباعدة المتضامة مـــن جديـــد، لكنـــه لا يردعها ولا يرجعها إلى وراء. ولا تصمت الهتافـــات، لا دفقـــات المـــاء الصادمة بقوة هراوات حديدية ولا عواء الكلاب ولا الشتائم البذيئـــة التـــي تلاشت في دوّي الضجة المتلاطمة ولا الأوامر الصارمة التي كأنها تطيـــر وتضيع في الهواء لكن أثرها فوريّ وفعال: إضربْ.. إضربْ في المليان.. سارينات سيارات الإسعاف تصفر، تتوالى، ترتفـــع النقـــالات بـــالجرحى والساقطين الذين تتهدل سيقانهم وأذرعهم ولا يحيرون حراكاً انقطع مـــنهم النَفَس، وفجأة صعدت شعاليل النار من سيارة إسعاف تجري بحمولتها التي لا حول لها، ثم توقفت في الساحة الصغيرة بين سينما مترو ومقهى إيليت، نزل المتطوعون يحملون نقالة كان الولد الجريح فوقها يئن أنيناً خفيضـــاً، مالت النقالة حتى أوشك الولد على الانزلاق منها إلى الأرض ثم ارتفعت، جاءت سيارة إسعاف أخرى متقلة بحمولتها لكنها احتملت النقالة الجديدة في اتجاهها السريع إلى المستشفى الأميري وكلية الطبّ.

المخزنجي يجري الآن في شارع صفية زغلول متجهاً إلى شارع فؤاد، على القمة تناهت إليه شتيمة أنيقة باردة: ملعون أبوكم علـــى أبـــو بغـــداد وفلسطين.

امتلأت شوارع وساحات مصر بالغضب.

بعد منتصف الليل في محطة الرمل الخالية الغافية تحيط بها أشجار النخيل السلطاني السامقة، يرتفع كُشك ناظر المحطة بسقفه القرميدي وقد توهجت حمرته الكابية المبلولة بعد رخّة مطر قصيرة مفاجئة انجابت بمجرد أن انصبّت، كانت الغزالة رشيقةً ممشوقة تقف ساكنة في الهدوء الشامل يرتعش نبض قلبها في العنق الطويلة التلعاء الشاخصة إلى أعلى، عبر سعف النخيل، إلى أنوار كازابلانكا وعلى كيفك من وراء الواجهات الزجاجية العريضة الممسوحة بمياه السماء.

الشاحنات الفورد السوداء مكتظة بحمولتها المنذرة، سيارات الجيب المكشوفة مشرعة مدافعها الرشاشة رفيعة الفوهة، أمام التريانون من ناحية، وأتينيوس من ناحية، نام العساكر على مقاعدهم فيها، متمايلين على بعضهم بعضاً، يسندون دروعهم على زملائهم، محتمين من لذعات هواءٍ بارد تحملها إليهم هبّات من رياح البحر الذي تصطدم أمواجه، في هذا السكون المُحدق، بالسور الحجري السميك القديم، يُسمع صوت طشّ الماء بالحجر ثم سقوط رذاذه على الرصيف.

تحت الشاحنات ربضت الكلاب بجسومها الكبيرة، سوداء، ومرقطة بالبُنّي والأبيض، عيونها نصف مفتوحة نصف متربصة، خياشيمها ترتعش تتساقط منها خيوط لعاب لزج.

الشوارع مسدودة، سعد زغلول من ناحية، صفية زغلول، عبد الحميد بدوي، أمام جامع القائد إبراهيم، أمام جمعية الشبان المسيحية، على شريط ترام الرمل، من جانب، ومن الجانب الآخر المؤدي إلى محطة ترام الأزاريطة، كلها قد أغلقت بكوردونات من العساكر، يقفون في غير رسوخ

ولا تماسك، ليس أمامهم من يقفون ضده، النعاس يرنّق بأعين نصف مفتوحة نصف متربصة، في أيديهم الهراوات المكهربة دافئة من مسكتهم الطويلة، والدروع المسطحة والخوذات البلاستيكية المقوسة، مائلة أحياناً أو مدفوع بها إلى خلف الرؤوس المربوطة بمناديل مغبّرة الشكل على فروة الشعر الأجعد الخشن المحلوق نمرة واحد.

ساحة محطة الرمل قد غصت بالشباب الذين اخترقوا كوردونات العساكر أو تجاوزوها فتسللوا ببراعة من الشوارع الجانبية.

مئات من طلبة الجامعة افترشوا الساحة التي كانت تحتشد بمساحي الأحذية يدقون على صناديق الورنيش، وأصحاب الموبيلات للتأجير الدقيقة بخمسين قرشاً. كان الأولاد جالسين على جاكتّاتهم أو على كتبهم وكشاكيلهم، متلفحين بالكوفيات الفلسطينية، بجانب اللافتات القماش التي رفعوها طول اليوم: يسقط العدوان الأمريكي الإسرائيلي، يسقط شارون مجرم الحرب، اطردوا أولاد العاهرة من أرضنا الطاهرة، الإسلام هو الحل، القرآن دستورنا والرسول زعيمنا، معهم في الساحة مجموعات متناثرة من العائلات الاسكندرانية - كيف وصلوا؟ - النساء بالملايات اللفّ وأطفالهن ورجالهن أبو أحمدات من بحري والسيالة، من غيط العنب ومحرم بيه، فردوا البطانيّات والملاءات على الأرض، دعوا الأولاد أن يجلسوا معهم أحاطوا بالشباب، تعارفوا واندمجوا وأخذوا - طبعاً - بأطراف أحاديث شتى عما يجري في فلسطين وفي العراق، عن الغلاء الكاوي والأسعار النار والبطالة التي تنوء بشباب الخريجين وشباب العمال على السواء، عن المستقبل المسدود والآمال المفقودة والأحوال زيّ الزفت وحكومة العواجيز التي لا تنزاح عن كواهلنا، عن الخدمات والفرص المتاحة - على العكس - التي تتطوع بها الجماعات الإسلامية في مقابل الولاء والتبعية والانصياع:

- يا خويا مالهم الناس؟ ولاد الحلال بيعرفوا ربنا وأوامر الإسلام، يدفعوا للبتّ مهرها وللكبار فلوس الدوا والعلاج، يا ختي بلا نيلة هيّ الحكومة يعنيِ كانت عاملة لنا إيه، ما هي العيّنة بيّنة.

- يا ستي ماهمّ دول اللي ضربوا الناس بالقنابل عمّال على بطاّل، راح فيها الأبرياء اللي لا لهم في الطور ولا في الطحين وبعدين الفظايع اللي ما تتحكي اللي عملوها في الأقصر، دول قطّعوا بزاز الستّات الأجانب بعد ما دبحوهم.. يا ساتر.. هو ده الإسلام برضو؟

- ما هي الناس فاضت بيها.

- واللي زاد وغطّى الراجل ده اللي اسمه بوش: يضرب الناس في العراق من غير زنب ولا جريرة.

- وشوف اللي بيعملوه اليهود.

- الإسرائيليين يعني، الحكومة الصهيونية يعني..

- يا خويا ماتفرقش

- لأ برضو تفرق

- زيّ بعضو تفرق ولاّ متفرقش، أهو كلّه ضرب وخراب ديار وقتل الأطفال والشيوخ، بقى دي عمايل ترضي ربنا؟ ولاّ ترضي حدّ؟

الطلبة يحتمون من هبّات الهواء البارد من البحر، يقاومون الإرهاق والرغبة الملحة في النوم، أو يستسلمون لها، كانت أصواتهم مبحوحة قد جفّت من طول الهتاف والمناهدة.

سينمات ستراند وفريال وراديو، ومحلات الهريسة الفيومي، على كيفك، التي تحولت إلى كنتاكي وأيس كريم الباسكين روبنز أغلقت أبوابها

وأنزلت ستائرها الحديدية، باعة السميط والبيض والكروريا والجبنة التركي طلعوا من تحت الأرض، راجت بضاعتهم باعوهـا الآن بنصـف الـثمن إكراماً للجدعان على سبيل الشهامة والرجولية. أما الذي جاء آخر الليل فقد باع بضاعته الطاق طاقين، أو حتى ثلاثة أربعة أضعاف.

توقفت عربات ترام الرمل أمَ دورين صفاً طويلاً من المحطـة لغايـة الأزاريطة، عربة خاوية وراء عربة خاوية، لملم باعة الصف والمجـلات والكتب الشعبية فَرشْتهم وجلسوا أمامها، نفـدت صـحف اليـوم ومعظـم مجلاته.

الفصل الرابع

شوارع الإسكندرية رخامية وضّاءة بالليل، تُعشي البصر أنوارُها المنبثقة من بلاط الأرض الناصع، من الواجهات المرمرية البيضاء، من الأعمدة الكورنثية والأوغسطينية، من المشاعل المتوهجة بنيران زيت الزيتون الفوّاح.

الخيول تضرب بحوافرها المسكوكة الشوارع المرصوفة بجرانيت ورديّ مجزّع ساطع اللمعان، تصيل فتتردد أصداء صهيلها بين واجهات القصور الصاعدة على جانبيْ شارع كانوب الضيق الطويل، منيراً بالليل. تنزلق سحب بيضاء رقيقة على السلسلة رأس لوقياس، وتأتي من فوق البيبليوتيكا والميزيون حتى المنارة الشاهقة رأس فاروس على الميناء الشرقية الغاصة بسفنها وقد بسطت أشرعتها البيضاء والحمراء السامقة، بحمولتها من خشب الأرز المشحون في صيدا وصور، وجموع العبيد البيض من القوقاز والسود من أرض بونت، رابضين في قيعان السفن المنتنة مصفّدين متلاصقين، جاثين على مخلفاتهم المائعة والجافة ساطعة الفوح الخانق، تربطهم السلاسل والجنازير إلى حلقات متينة مثبتة في جدار السفينة.

أفراس البحر بجسومها الثقيلة تسبح ببطء في فرع النيل الكانوبي الذي يصبّ جنب الميناء محمرّاً بطين الحبشة والسودان، تفتح أفواهها الضخمة

تلتهم أكواماً من العشب النامي على مصبّ النهر القادم من الجنوب مازالت فيه عرامة حوشية.

موسيقات اللهو والقصف ترنان النايات والدفوف، أغنيات تصدح بها الجواري والمحظيات والكورتيزان تتصاعد من وراء الأعمدة الجرانيتية الناعمة المستديرة، دخان المحارق القرابين أمام چوبيتر وديانا وڤينوس وأپوللو وباخوس، يرتفع من المعابد المحيطة بالمسرح الرخاميّ المدوّر الخاوي بالليل كأنه مازال معموراً بأشعار أيسخيلوس وسوفوكليس النقية الورعة رتيبة الأوزان، وضحكات الناس على مُلَح أريستوفانيس البذيئة التي لا حياء ولا تورع فيها تختلط بشجن سيد درويش الموقّع الحنون من ربوة كوم الدكة زوروني في السنة مرّة.. يا نخلتين في العلالي بَلَحكم دوا وهتافات الجماهير تهدر بطلب الاستقلال والجلاء والغلاء أين الكساء يا ملك النساء وانتَ لابس آخر موده واحنا عايشين عشرة في أوده، بالطول بالعرض هنجيب شارون الأرض حنكمل المشوار القرآن دستورنا والرسول زعيمنا كسبانه كسبانه بين فريقيْ الزرُق والخُضْر في منازلات المقاتلين بضراوة حتى الموت فداءً لقيصر، الأهلي حديد والزمالك فنّ وهندسة صيحة أرخميديس وجدتها يوريكا وصرخات الغوغاء الموت لهيابتيا الموت لها.

كلّنا لها.

أمّ رضوان، مانورة، ريم، لواحظ، وضّاح الحداد، قدّار القرداتي، شيخهم أبو غالب وحمارهم وقردهم وكلبتهم وقطتهم، نزلوا صفّاً، واحداً بعد واحد، من سقالات خشبية ممدودة على مياه الميناء العكِرة التي تطفو عليها نفايات الخضراوات البالية وأعواد خشبية قصيرة جافة، وبُقع من الكَدَر والوَضَر غير محدد المعالم، يتحامى عنهم مساتير الناس: الستّات بأثواب الهيماتون الملفوفة على قاماتهن المليئة، والشيوخ أصحاب اللفاعات

السابغة على أجسام ضاوية، عساكر الرومان بخيلائهم وكبريائهم وخوذاتهم النحاسية اللامعة، في أيديهم دروع جلدية صلبة وهراوات قصيرة مـــدوّرة وعلى حقويهم خناجر مقوسة في غمدها الجلديّ، حتى العبيـــد بوجـــوههم لامعة السواد يرفضّ منها نضح عرقٍ شفاف، يعتلون الحمولات الثقيلة من المركب إلى الرصيف، ومن ورائهم، بالكرباج، الريس نونو.

من رصيف المينا إلى المخزن رقم ٦ في كفر عشري.

- هؤلاء الناس، الزُطّ، الغجر، لا دين لهم ولا ملة. يعاشرون الكـــلاب الوحشية والذئاب، نساؤهم يضاجعن التيوس والثيران.

- يا راجل اتقِ الله. بل أعرف أن لهم أخلاقية كأخلاقية الـــرواقيين. لا يخدعنك ما يلوح أنه لعب أو مرح أو شيطنة، أو رقص وطبل وزمر، على العكس صرامة العمل عندهم مقدسة.

- لا يا شيخ. قل كلاماً غير هذا.

- أي وحقّ زيوس. طيب خذ عندك: يعملون هم ونساؤهم وعيالهم فـــي ضبط وطَرْق الأواني النحاس القديمة، تبييض النحاس، حتى أســياخ شـــيّ اللحمة، تصليح الكوالين والمفاتيح، الوشم للناس رجـــالاً ونســـاءً، عـــلاج البهائم، كيّ البقر والجمال، صبغ الحمير، صناعة المناخل من شعر الخيل، نسيج وغزل الصوف، جزّ صوف الغنم، صناعة السلال وخصف ســعف النخل، كمان..؟ طبعاً مهنهم التقليدية الموروثة: الـــرقص، الغنـــاء، فـــتْح المندل، قراءة الكفّ والودع والفنجان، ضرْب الرمل، ختان البنات وطهور الصبيان، وكمان بيع الليمون..

ثم قال:

- سوف تمضي بهم مصائرهم إلى ما هو غير محدد ولا معروف، مـــا هو مجهّل بالضرورة، أو ما هو مضمون، على أغلـــب الأحـــوال، إلـــى

مواقعهم ومضاربهم في سنباط وطهواى وشرنوب، في مجرى العيـون أو في غبريال، عين الصيرة أو صفط اللبن، في المقابر، ليـه لأ، والبيـوت المهدومة والخرابات العامرة بحضورٍ من طغيان غير محسوب، يـدينون لمن خلق السماء واسمه عندهم دِلْ، ويتقون بنج رمز الشرّ، إذا كـانوا قـد عبدوا النار والشمس، في وقت ما، فهم الآن يبجلون النار ويتخذون الشمس قبلةً ومناراً، لكنهم دائماً غرباء، مضطهدون، مرفوضون.

قال المخزنجي: ألا أرى نفسي مـن قبيلـة الغربـاء المضـطهدين أو المرفوضين؟

قال: ألم يصنعوا المسامير التي دُقت في يديْ وقـدميْ المسـيح علـى الصليب، بينما رفض كل الحدادين صناعة هذه المسامير؟ أسلاف وضّـاح الحداد هم الذين دُقّت مساميرهم في جسد المخلّص ابن الله، ألذلك – أيضـاً – يعيشون هم وذراريهم إلى المنتهي تحت وطأة الإثم العظيم؟ لكنهم سرقوا المسمار الرابع، وكان على الجنود الرومان أن يربطـوا إحـدى ذراعـي المسيح على الصليب بالحبال، لذلك كان حسّـهم العتيـد بـأنهم أحـرار، متمردون، لا تُلزمهم قوانين سائر الناس.

تعالى صخب الميناء الشرقية ولَجبُها فأغرق الكلام، تضاربت الصرخات والنداءات والهتافـات بالديموطيقيـة والعبرانيـة واليونانيـة، الفصـحى والبزرميط، والسريانية واللاتينية الهجين والتلويح بالذراعين والإشـارات البذيئة بالأصابع والجري بسيقان مفتولة عارية لا توشك أن تحيط بها خرق ملفوفة بالكاد على الحقوين.

بياع السمك المشوي أقعَى على الرمل المغبرّ القليل أمام رصيف الميناء يرعى نيران الكانون الصغير تفوح رائحة شـواء السـمك مـع الزعتـر والريحان والكرفس تتضوّع في الهواء المبلولَ مع دخان الموقدة.

في قلب هذا العجيج كان الغول.

يمشي منصوب القامة بالكاد يميل قليلاً إلى الأمام بجسمه الأشعر الضخم رأسه الأصلع تحيط به دغلات صغيرة من الشعر الأجعد الأسحم تنزل من الجانبين ومن الجهة الضيقة على العينين الصغيرتين الغائرتين عميقاً عميقاً في عظْم الجمجمة، ساقاه مقوستان قليلاً، يمد أمامه ذراعين ملتويتين يكسوهما شعر كثيف كأنه يتحسس طريقه لا يرى وإذا به يحيط بالجسم الرقيق الهفهاف وهي لا تكاد تنطق مفتوحة الفم عن صرخةٍ مُخْرَسة من الهلع المستبد، الغول يهتصر الجسد اللدن في حضنه الأشعث القاتل، أنشب ظفره الطويل في العنق الليّن. انبثق من الثقب العميق نزّ نزر خيط دقيق رفيع متسلسل ومحدّد من دمٍ قانٍ.

تستبدّ به – هو – في المقابل – نزعةٌ عارمة أن يسارع إلى استخلاص هذا الجسد الممسود، بموسيقاه السلسة، من براثن المسخ المَرِيد لكنه مشلول الساقين والعقل معاً لا يحير حراكاً.

في سينما ستراند، في الثلاثينات، المسخ والسنيورة على الامپاير ستيت، لم يرَ الفيلم الذي طالما حلم برؤيته، ولم ينس، قط، أنه خُدِع عنه.

على ضوء أنوار النيون أمام التريانون، حفيف أشجار النخيل السلطاني التي ترتفع على الجانبين سامقة بيضاء السيقان ينوس سعفها، صوت وصول شاحنة ثقيلة من شاحنات الأمن المركزيّ يصكّ الأسفلت اصطدام الأحذية الميري الضخمة بالأرض إذ يتوالى سقوطهم بانتظام من الشاحنة واصطفافهم في كوردونات جديدة تحكم إغلاق الشوارع الجانبية المتحدرة من ربوة المستشفى الأميري.

كلها تُضفي على المشهد الليليّ غرابةً تجعله يبدو كأنه من غير هذا العالم وإن كان يقع في صميمه.

وقف المخزنجي فجأة.

كادت صدمة الدهشة تجمّد الدماء في شرايينه، بالفعل.

ريم تطفو تنساب تترقرق بين الجموع التي افترشت ساحة محطة الرمل، تطفو بينها كأنها رؤيا، لكن مجسّمة متجسدة ساطعة المثول.

رقيقة مرهفة، ثوبها الخارجيّ الأسود الشفاف منسدلٌ على ثوب داخليّ سابغ داكن الحمرة، حافية، تلتقط خُطاها بنعومة بين الناس، حتى وصلت إلى الغزالة التي كانت ما زالت واقفة ساكنة شاخصة العينين الواسعتين إلى فوق، كأن سيقانها الرفيعة تنبثق من داخل أرض الساحة المرصوفة لا تسكن عليها ولا تسند الجسم المسمسم المسحوب المتناسق الذي يوشك أن يكون سماوياً.

أحاطت ريم عنق الغزالة بذراعيها، وضعت وجهها الصبيانيّ الريّان الجميل إلى جانب رأس الغزالة، اختفى الاثنان فجأة.

المخزنجي يفرك عينيه، غير مصدِّق، يعزو رؤياه إلى النور الخافت إلى همهمة الحشود المرهقة التي تنتظر طلوع الفجر، أو إلى حلمه الداخليّ الخاص.

لكنه ليس حلماً ولا رؤيا ولا حاجة.

غير بعيد منهما كان وضّاح الحدّاد كأنما يترصدهما، هو أيضاً يلتقط خطاه بحذرٍ وحيطة وراء ريم، كأنه لا يريدها أن تراه، كأنه يراقبها، أو يتتبعها، ثمةَ نية سوداء تحفزه – فيما يبدو.

كان معه، تقريباً – هل كان معه أم جاءت مشيته بالصدفة إلى جانبه؟ – جابر طبأش، محنيّ الرأس، كما هو ديدنه أو خلقته، قميصه الكاكي القديم مفتوح الصدر حتى الأزرار الوسطى على شِرْز صوفيّ أسود خلِق، نازل على البنطلون الذي لا شكل له ولا صفة. في قدميه حذاء قماش أغبر

اللون. قال المخزنجي في سره: معلش، مسروق من المخزن، تلاقيه سقط من كسرٍ تعمّد العيال عمال المخزن أن يصنعوه.

كان مع وضّاح وجابر الواد يونس مهنيّ، كما هو دائماً، ضاحك السنّ، شعر رأسه فروة جعداء خشنة، حاجباه كثيفان على عينين غائرتين.

تساءل المخزنجي: ماذا يفعلون هنا في وسط المظاهرة؟ لماذا تدبّ خُطاهم – كأنما هي مرتبطة بخيط مفتولٍ غير مرئيّ، بخطىً ريم المحلقة كأنها لا تسري على الأرض؟ لماذا؟ ماذا يجري؟

ريم بين ذراعي المخزنجي، على الأرض، في المخزن.

كيف نفذت من يورغو حارس الليل الغيّور على بوابة المخزن – الفردوس المكدّس بالبالات المحزومة بأشرطة حديد مسطحة تحكم حياطتها، كنوز داخل الخيش، والحاويات الخشبية الضخمة بعضها فوق بعض، متدرّجة، سلالم يعقوب صاعدة إلى سماء السقف السامقة.

لم تكن ريم.

هي مانورة عين الليل الدعجاء الصاحية ساطية النفاذ.

هما الاثنان معاً.

هما في داخله أيضاً.

تعصف به في ارتمائه على بلاطات الأسمنت الداكنة المتربة، أرض فردوسه الدنيوي دفقات الحبّ والنفور معاً، البغض والاجتذاب الذي لا يقاوم، بين ذاته وبين عين الليل وصورتها الصغرى المضيئة، كلتاهما فيه، منه، إليه.

قال: أريد أن تدخلي فيّ وأن أدخل فيك، أريد أن أحيا بعد موات، أريد أن نكون واحداً واحدةً في الآن معاً، متجاوزيْن الأحادية والانقسام. متصليْن، غير منفصلين.

قال: التأنيث أصل الوجود.

النساء شقائق الرجال، بل هنّ الصِنْو والمثال في الآن ذاته، محور واحدٌ للوجود، الحقيقة والخليقة معاً، كما يقول شيخي ابن عربي، ألم يقل؟

لا كمال لي إلا بها ولن تعرف الكمال إلا بي، نسبتي إلى الوجود الحق هي نسبتها، نسبتهن جميعاً، معاً، مانورة، ريم، رامة، مريم البتول، نعمة رامية السهم المريش الرسم والرؤيا والمسار والسماء الصغرى. النسبية هي المطلق بلا نقصان.

رأى في غيابات النشوة المتصاعدة أنّ على الحلمتين حمرة الحناء، انحنى بفم منهوم يمص الحرارة القائمة المنتصبة على كرتيْ الثديين العاجيّيْن.

في عتمة المخزن الصافية الشاسعة عنف شمس الانتشاء المحتدم.

الحرّ الضاري زخم حوشيّةِ التماسّ الحميم سهم أسود موشوم على البطن الأبيض الممسود مسدَّداً إلى سرّ الحرز الحريز، نداء دعوة توجيه.

دخل في شق السحاب الأبيض الصغير.

في مسامعه موسيقات موتسارت وباخ وسيّد درويش مع خفةٍ في الرأس يتمايل به حسّ السكوتش ناعم الحنايا.

قال: صعدت إليّ من أمواج الصخور في صَدَفة أفروديت المبسوطة مفتوحة الشقّيْن أم من صنع شهوتي؟

مع وجدانيات الوجد الذي لا وجود إلا به تجدني أو لا تجدني فما الوجود إلا وجدٌ متجدد لا تبلي جدّته كل جديد فيه تليد عريق وكلّ طارف فيه عتيق فهل ثم نكران للطارف أو التليد على السواء؟ ما التجسد إلا صياغة السماويّ المتسامي تستكنُّ القداسة فيه إلى سمادير الدنس وسوءات الجثمانية والدثور سحابات الجسد صفْو السماء أَثَمّ انصهار بينهما ينسخ

السدود والحدود أم لكلٍ كيانه الكامل لا ينال منه امتزاج، لا انفصال فيه ولا تفرقه لا لحظةً ولاً طرفةَ عين.

كلّ حسٍ عارم فيه نبرة عطب كامن فأين أين النقاء التامّ ومتى تقترن الإرادة بنفاذ الأفعال؟

عندما غابت ريم قمر القلوب ليلتها ولم ترجع لمرابض الغَجَر في حوش العفريت، حتى طلع الفجر، ذهب وضّاح الحداد على وجهه تعبير ملتبس غير مفهوم، كأنه كان يعرف، ولا يعرف، ماذا حدث – ومع روّاد أبو رِقّ – مدوّر الجبهة عاقد الحاجبين، وقدّار القرداتي أبو طبل، يبحثون عن البنت في الأرض الخلاء حول المخزن حتى ثكنات الهجّانة كالحة البنيان ومساقي المياه للجمال في أحواضها الطولية الرفيعة، جابوا أطلال القلعة القديمة، وأنقاض رصيف الميناء الرومانية المهجورة، حتى وصلوا إلى مخازن المدابغ، فغمتهم الرائحة النفاذة الخانقة، تهيجت صانوه الكلبة السوداء التي راحت تتواثب حول سيقان رجال الغجر تعوي بنبحات قصيرة ملتاعة تنذر بأن ثَمّ شيئاً ما في انتظارهم، خطيراً ومؤلماً.

انطلقت صانوه ملء سيقانها، ضروعها الكثيرة تهتز بعنف تحتها، إلى مبنىً حجريّ قائم الجدران متداعي السقف يبدو خاوياً مهدداً بالسقوط، فيه ثغرة فاغرة مظلمة محلّ الباب.

عبروا العتبة الصخرية المدفونة في الرمل، أوقفتهم المفاجأة في مكانها.

ريم ملقاة على الأرض، سكونها التامّ لا يوحي بأنها فقط نائمة.

في عتمة غرفة المخزن المهجور، الطافحة بفوح العطن القديم، كان وجهها مغمض العينين يضئ بنوره الخاص.

من عنقها تجمد خيط رفيع متسلسل ودقيق من الدم القاني.

كأنما كان وضّاح الحداد غير دَهِشٍ ولا مفاجَأ.هل كان يعرف؟ أم أكثر؟ هل كانت له اليد الطولَى في المصير الذي آلت إليه صاحبة الوجه الوضيء الطعين؟

لمح وضّاح من نافذة المخزن ظلَّ رجل يسرع بعيداً، وعندما خرج يلحق به، لم يجد له أثراً، كانت جمهرة من الناس، العمال والباعة السريحة وبنات صغار يجرون وراء الرجل.

من؟ المسخ، الغول، أبو غالب، وضاح، جابر، يونس، أم يوسف المخزنجي؟

قال المخزنجي:

- لماذا لقيت هذا المصير؟

هل هي ليلته الواحدة معها؟ هل كانت هذه الليلة معها؟ أم مع مانورة؟

بل هناك - لا شك - أكثر من سبب.

ثُمَّ قسوة لا يمكن تبريرها - كما لا يمكن في النهاية تبرير أية قسوة، أو ألم، أو أيَ نقص. لا يمكن أبداً أبداً تبريرها أو تفسيرها.

لا يحقَ.

لا يمكن من الأصل.

من هي التي قُتلت؟

من هي التي تموت الآن، ودائماً؟

الحلم؟ المثال؟

الوطن المهدور؟

أنا العليا المحاصَرة؟

الحقيقة؟

هل مات الوجود كله وانقضى إذ ماتت ريم المَحبّة وانقضت؟

أليست المَحَبة مقام الله؟ كيف تُقتل؟ كيف تنقضي؟

أصل الموجودات المحبة.

قالها شيخنا ابن عربي، قالها المخزنجي مرتاعاً، ملهوفاً، مؤمِّناً، غير مصدِّق.

الحديث القدسيّ "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلْق، فيه عرفوني"

ألم تكن الموجودات لتخلق أصلاً إلا بفعل الحب؟

كيف تمتد يد الغدر بالطعنة المصمية؟

بين الحق والخلق فعل الحب. بين الحياة والقتل ضيعة الحب.

لا معرفة إلا بالحب، لا كمال إلا به.

هوّذا ظلام انعدام المعرفة. هوّذا النقص الذي لا يحقّ.

قال المخزنجي:

- يا خبر! مالها ريم المسكينة الغلبانة وهذا كله؟ هأنت ذا يا عم يوسف قد شردت إلى عالمٍ كله مجردات، ليس فيه ما يمكن الإمساك به، مجسماً، ملموساً، عينيّاً. هأنت ذا تثير "قضايا كبرى" هل ثَمّ لها من محلٍ هنا؟ هل ثَمّ من معنى لها هنا، والآن؟

الفصل الخامس

ثم قال المخزنجي:

- كل شئ هو نفسه، هو ذاته، كل شئ متغير. مختلف، في الوقت نفسه.

"أنا لا أنزل النهر مرتين"؟

صحيح.

أنا أتغيّر، هناك "أنا" آخر، وكذلك النهر، آخر.

قال:

- غير صحيح أيضاً. هناك "أنا" الجوهريّ، بؤرة، بذرة، نواة، كيانُه لا يتغير، ولا يتحوّل. وهناك أيضاً "جوهر" ثابت، سيالٌ ممكن، متقلب صحيح، لكنه واحد، في النهر، كل نهر على حدة.

حتى اذا نزلت الراين أو المسيسبي بدلاً من النيل، فإنه هو - النهر - هو، في جوهره، هو نفسه.

قال، متردداً قليلاً:

- وأنا، كذلك.

قال:

- أليس هذا ما يحدث الآن، وهنا؟

قال:

- أم أنني في نهاية الأمر لا أعرف إلا الآن، وهنا، الظاهرة التي سرعان ما تمر وتنقضي. "ما أسميه "الجوهر" هو تجريد. أما الملموس الواقع المؤثر في الحواس فهو الصحيح الوحيد، لذلك أنا - المتغير باستمرار - لا أنزل النهر - المتغير باستمرار - مرتين.

قال:

- أم أنك تعود إلى عالم ثابت أبديّ راسخ الجوهر، مهما تغيرت الظواهر؟ أليس هذا العالم، ثابتاً، استاتيكياً، هو مُعطَى قَبْلِيّ، عالمٌ أفلاطونيّ، قائمٌ هناك بلا حِوَل ولا عَرَض، وما نحن - وعالمنا - إلا الظلال المهتزة المنعكسة عن مُثُلٍ جوهرية؟

كل شيء هو نفسه.

هذه ريم - مرة أخرى - بين ذراعيه.

رقيقة، هفهافة، هوائيّة الرقّة، تكاد تتطاير حناناً وامتثالاً، فلا يبقى منها شيءٌ في حضنه.

لا. هذه مانورة ساطعة الوحشية، ساطعة البهجة، ساطعة الأنثوية.

بين نظرة ريم المتوسلّة تقريباً، وعينيْ مانورة الآسرتيْن، تلوح له - كأنه في غيبوبة من نشوةٍ خاصة، قسمات لواحظ الراقصة الغجرية الأخرى التي ذات ليلةَ كاملة من صباه البعيد، في وادي النطرون - وادي الملوك؟ - عمرت هذه الليلة بجسدها الباذخ الوضّاء المتثني في بدلة الرقص التقليدية. كأنما كان جسدها يتمرد على البدلة المفروضة عليه، يتفلت من النسيج الأسود الشفاف المترنّم بصفائح الترتر الأبيض الصغيرة، موسيقاه الذكية الخاصة - جسدها - تتآلف مع - بل تُغرِق - موسيقى الطبلة والرِقّ ودقّات الصاجات في يديها.

قال المخزنجي عن نفسه:

- يا سلام.! كل هذه الشاعرية، كل هذه الرومانسية، في أجسام النسوان الغجر، العوالم، الغوازي، شراميط بشكلٍ أو آخر، كأنها مع ذلك تسكن جسمه هو نفسه، تشغل كل أركان وعيه بجسمه، لا يعود يعرف أو يحس في دخيلته، من جُوّاه، إلا بهذه الأجساد الأنثوية الرخْصة الناعمة، لم تعد حشاياه تحمل إلا هذه الأنثوية التي كأنما تجمعت فيها كل أنثوية في العالم كله، كلّ أنثوية العالم.

هذه المرأة - العالم - الأنثى الشرموطة: ريم مانورة رامة نعمة مريم وما لا نهاية له من أسماء - ماذا تهم الأسماء؟ أم يقلها عمّنا شيكسبير من زمان، ورددناها وراءه ألف مرة حتى ابتذلناها: الوردة هي الوردة مهما كان اسمها.

الأنثوية الجوهر الراسخ وراء كل مظاهرها، صادقة في يأسها، صادقة في تعدُّديّتها، تعبر به - تتجاوز به - مجرد المضاجعة التي تكاد تكون حيوانية، بل آليّة، ميكانيكية تقريباً، أياً كانت تقنياتها في الإيلاج والدفع والرهز والقذف والسحْب - تتجاوز به مجرد تعددية نسويّتها في اقترانها بالرجولية، إلى حبٍ أنقَى.

يتردد لحظة أمام كلمة، ومفهوم، الحب.

هو شئٌ أخر أكثر من حب، وأكثر - جداً - من مجرد الجنس.

هل ثَمّ نقاء في الإيروطيقية يعلو على كل مفهومات الحب، كل ممارسات الجنس، كلّ آليات المضاجعة؟

المخزنجي يتمدد، في هذه الغرفة الخاوية تقريباً، على مفرشٍ رقيق مفرودٍ على البلاط، ينظر إلى السقف، يدخّن سيجارة روثمان عبر مبسم عاجيّ ناعم الفوهة ورثه عن أبيه.

عندما أحس القطة مورة تتحسس ساقيه كان يعرف أن أجسادهن جميعاً هي التي تتمسح به، كان يستمتع بحسّ فروة جسدها الناعم المتمطي بإزاء عضلات ساقيه المسترخية المستلقية.

القطة وحدها كانت تعرف من هم الأولياء العشاق حقاً، معرفةً تتجاوز كل تفلسفات الجوهر والظواهر، معرفةً روّضت المستحيل، آنستْه وأَنْسَنَتْه والتحمت به حتى أصبحت معرفة مستحيلة هي نفسها، مستحيلة التصوّر، مستحيلة الجوهر، مستحيلة المظهر في آنٍ معاً.

وابور الجاز عند عمّ فتحي الكانتين يئزّ في صمت المخزن.

ساعة الظهيرة الحارة.

آبَ الريس نونو، مع عمّاله وعتاليه، مع عمّ علي الونشمان وصبيّه حسنين، إلى قيلولة ظهر بؤونة التي تفلق الحجر.

حتى عمّ متولي رئيس المخزن، ورامي افندي شنن، وهنري، وچو، قد أخلدوا إلى الفوتيّات الخوص – عليها شلت صغيرة – في مكتب الإدارة الذي يقع خلف ترابيزة المخزنجي، قِبالة الونش، وقد تدلت سلاسل الخُطّاف الحديدية متهدلةً أمام النافذة العريضة.

لكن صوتها لم يكن خيالاً في غيبوبة نشوة، بل كان صاحياً، صارماً، حتى وهو يطوي في حناياه حناناً مكتوماً.

- يا باشمهندس خلّ بالك. اصحَ للي بيجرى.. آنـــي لا باشـــوف ودَع دلوجتي ولا بافتح مَنْدل. آني بجولّك كلمة واحدة. خلٍّ بالـــك م الحكومـــة. بتدوّر عليك من يوم المظاهرة. خلّ بالك من وضّاح الحدّاد، حـــالف لـــك، حلفانه ما بينزل الأرض.. مشْ وضّاح منّا وعلينا؟ لكنِ بجوّلك أهُوه.. خلّ بالك منّه.

تقف أمامه كاسّاندرا الغجرية، تنذر وتحذّر وتتنبأ، دون أن تجـد أذنـاً صاغية، إذ كانت متلفّفة بثيابها السوداء السابغة الملتفّة على بطنهـا الـذي استدار به حزام أحمر عريض، رأى أنه مغضّن، ملفوف بسرعة ولهوجـة في غير إحكام من غير أن يخلص من شوائب وبقع داكنة نوعاً ما ليسـت تعيبه بقدر ما تضفي عليه حيوية وألفة وأنساً. يرتفع صوتها القوي من فـم ملئٍ بشفتين مكتنزتين غير مخضوبتن بالروج الذي يعرفه المخزنجي عنـد ستات وبنات البلد. هل هو خضاب حنّاء للشفتين يجعلهما لمياوين داكنتـين يكسبهما غضارة ولدونة مترعة بالشهوة؟، أنفها مخزوم بتلك الحلقة الذهبية الصغيرة مشرشرة الأطراف.

عيناها سماء خضراء مقمرة.

هل كانت تعطيه جسدها وحبّها ونُذُرها مكافأةً له؟ عمّ؟ ماذا وهبها غير شهوته وشيئاً من حنِيّته؟ أم أنه مقدمةٌ للقتل والانتقام؟ أكان ذلك بنوعٍ مـن "الحب"؟

قال، بدهشة: هذه الكلمة.. تاني؟ ما زالت تحتفظ الكلمة عنـدي بكـل عنفوانها، بكل معناها - أياً كان معناها - رغم كل شئ. ما أغرب ذلـك، قال.

لحظة المحبة - فعل الشبق - تتقطر فيها كل صبوات الحنوّ وعـذابات القلب، رومانسيٌّ أنت ما زلت لابرء لرومانسـيتك.. لا، ليسـت مسـألة

"رومانسية" بل هو صميم خبرة حياتية لا مثيل لحدتها وجيشانها ونقائها أيضاً. مانورة، ريم، لواحظ مالا نهاية لأسمائها الحُسنَى ليست موضوعاً – فقط – لشبقٍ ذكوريّ، هي عاملٌ فعال مشارك بنفس القدر مع امتثالٍ أنثويّ عجيب – في صنع تلك اللحظة.

قسمات جسدها تتجاوز الجسدانية.

ما أهمية أن خيلاً كثيراً قد داس هذه الساحة؟ ما زالت عندي بكراً وطهوراً ونضرة لم تُمس، مدينة بلا أسوار ما زالت منيعة لم تُقتحم. ومع ذلك فليس في المسألة اقتحام أو استسلام (فيها هبوةٌ من ذلك دون شك) لكن فيها مجدٌ لتحققٍ كأنه إلهيّ، كأنه غير إراديّ، كأنه إلهامٌ سماويّ يفوق حدود البشر لكنه نابع من صميمٍ إنسانيّ بحت، حتى التجاعيد في الأماكن السرية من جسمها – جسمهنّ – لم تعد مجرد ثنايا اللحم الأنثويّ بل تومئ إلى كثبان صحراوية ساطعة النقاء في طوايا رمالها التي مرت عليها رياح الشهوة وصوّحتها شمس الأشواق.

الشِق الشبقيّ مفتوح، كما لو كانت مصابةَ بجرح قاتل، مطلوبٍ حتى الموت، ينبض تحت يديه، يحسه مضموماً حوله، مضمخاً بعبق حريف زكيّ، يتسع ويضيق، رعشة الحب الأخيرة وصرختها تجسيد للمرأةِ الموتِ العالم. فراشة مليئة حاشدة بلحم الليل تخفق وترفرف تحت صلابته، تحترق – مثل كل الفراشات – في نارٍ أشعلاها معاً، لكنها وحدها تدرك أن احتراقها جديرٌ بها، أن العشق الشبقيّ حقيقٌ أن تنصهر فيه إذ تتذوق عسيلة لذةٍ لا تعدلها أيام الأبد.

عندما أفاق فجأة من غيبوبة الحبّ رآها – هل رآها؟ – وقد هبّت على ركبتيها، عارية الفخذين، اندلع عنها لهب قميصها الداخليّ، متربصة به،

متحفزة، نمِرة على وشك الوثوب والانقضاض، في يدها خنجر صغير حادّ، مقوَّس، لمعت شفرته المسنونة تومض بكل شرّها في النور الشحيح.

هل كانت تهمّ بأن تضرب بالطعنة المُصمية النافذة؟

مَنْ؟ تضربه هو؟

بعد هذا الهيام العلويّ في سماوات الشبق؟

تقتله؟

عندما فرك عينيه لم يجد في يديها شيئاً. كانت فقط تستعد أو تهمّ بالقيام. أسدلت عليها قميصها الداخليّ المشتعل وفوقه جلابيّتها السوداء السابغة، وعصبت بطنها بالحزام الأحمر العريض الذي كان ملقي على الأرض،

هل هذا كل شيء؟

مرة أخرى، وهي تخرج، قالت بصوتٍ شديد الخفوت:

- خلّ بالك م الحكومة، ومن وضّاح.

قال، وهو بالكاد يستعيد نفسه:

- الحكومة؟ إزايْ يعني؟

لم تكن مستعدة أن تفضي له بأكثر من هذا النذير.

قالت: كيف ما بجولّك يا باشمهندس يا حبيبي.

دهش من ردّها، لم يكفّ عن الإلحاح:

وضّاح؟ ماله راخر؟

- كيف مالُه؟ هو احنا مش حريمه؟

- يعني إيه؟

– يا باشمهندس يا حبيبي ريم راحت مجتولة. دمها حيروح هَدَر؟ ما الجول الساير عند الكلّ إن لك يدّ ما تخفَي على حدّ.

هبّ مفزعاً:

– أنا..؟ ريم؟ إيه الجنان ده يا مانورة؟

– أنا مالي صالح كده ولاّ كده.. أنا بابري ذمتي وبسّ، دا برضو بينّا أكتر م العيش والملح. مش كده ولاّ إيه؟ دي العشرة ما تهون إلاّ ع الكافر..

ليس في هذه الغرفة المبلطة ببلاط مربعات أبيض وأسود عليه حصيرة جديدة – شائكة قليلاً من جدتها – إلا شلتة واحدة مفروشة بكسوة قماش شاهي مقصّب، من نفس نسيج قميص مانورة الداخليّ المقصَّب بشرائط عريضة حمراء مشتعلة، ليس بها أثاث إلا هذا الدولاب الذي يحتوي على حقيبة كاكي فيها ثلاث قنابل يدوية إيطالية الصنع، ثلاث رمّانات حديدية مضلعة خامدة الآن تكمن في داخلها قوة انفجار غير محسوبة – وثلاث ياسمينات هندي طويلة متفتحة ناضرة في ثلاث زهريات فخارية على لونها الأصلي من صنع جاراجوس، تنفح عبقاً خفيفاً ومُسكِراً إلى حدٍ ما وكأنه مع ذلك مُنذِر محمّل بدلالات ونتائج غير منظورة، الشذى المتطاير الذي له مع ذلك ثقلٌ في القلب، يوميء، ربما، إلى عقابيل فِعل المصير وفعل العشق وفعل الإحباط، ربما، وفعْل الموت معاً.

قال: هل هذا يُصدَّق؟ هل هذا معقول؟

في هذه الغرفة الخاوية تقريباً تدور حلقة الرقص كما تدور طقوس وثنية تحت أعمدة أثرية شهدت أمجاداً غابرة بائدة.

إحياءٌ لعبادة ديونيزية مندثرة.

أقنعة باسمة خضراء مصبوغة فاغرة فاها تحت شعْر طويل مستعار يعلوه تاج أصفر. محاسن المطيباتية تمد يديها بحركة بطيئة أظافرها فضية ترتدي جلابية رجالي مقلّمة مسدولة على جسمها المتموج.

لواحظ تميد وتتأود لدنةً ممسودة - في جلابية رجالي أيضاً - في قناع ساخن من نور السماء منصباً من النافذة العريضة ونور عينيها.

عوّاد أبو مزمار وروّاد أبو رقّ وقدّار القرداتي يرتدون جونلاّت فضفاضة وبلوزات ساتان بحمالات رفيعة وغوايش صفراء مجلجلة، الزواق الثقيل على العيون والوجنات العظميّة ذهبي وأحمر ويانع الخضرة، حركات الحواجب والعيون لها قانونها.

وجوه في الرقص المحتدم هي نفسها أقنعة من الارتداد الجهْم الأعيُن فيها نوافذ ضيقة مسدودة، أقنعة يأس لا يدري بنفسه.

نطاقات مشدودة على الجلاليب والجونلات لها دلاّيات من الأحجبة المثلثة الصغيرة جداً مربوطة على شقافة رصيف الميناء الهيروغليفية والخرز الأزرق والأجراس الدقيقة رنين دقاتها كريستاليّ شفاف.

طاسات نحاسية آلات صفْق خشبية وعاجية صنوج ومثلثات نحاسية موسيقاها جنائزية شهوية في وقتٍ معاً.

الراقصات الراقصون سوف يعودون سراعاً إلى مثواهم على الأكفان القبطية.

الشمعدانات الموقدة تدور حول الأرداف النسوية والرجالية هم أنفسهم جميعاً شمعدانات مشتعلة متموجة. قلّة لا ينسكب ماؤها على رأس لواحظ مهما تمايلت. ديكٌ ناشر العرف مشرع المنقار لكنه منكسر لا يطير فوق

رأس محاسن كأنه يعرف ألاّ مفر من مصيره المحتوم، ذبيحاً تحت أقـدام الملكة.

سوف تطير مانورة إذ تستعيد ريشها الثرّ المفقود، سوف تحلّـق فـوق صخب الموسيقات وتغيب في صمت سماويات غير مرئية.

بينما ركعت لواحظ إذ أنزلت القلّة من على رأسها، أقعت على الأرض وسط حلقة الرقص المتسارعة وانحسرت جلابيتها الرجالي عـن فخـذين عموديْن كورنثيينْ وردفين متسايليْن ينثبق من بينهما ذيلٌ حيـوانيّ أشْـعَر يهتز يميناً وشمالاً بإيقاع متصلّب رتيب.

خلعن الأقراط والقلادات والخواتم والـدلاّيات أسـقطنها علـى أرضٍ الغرفة الخاوية التي تبدو الآن حقلاً خصيباً مغروساً بنبْتاتٍ فضية وذهبيـة ونحاسية لها صليل وجلجلة إذ تتحرك كأن فيها حياة داخلية متوثبة.

عربدات نقيّة بدائية بذاءتها صافية مطهّرة هي طهارة التحرّر الشـبقيّ الانطلاق الأوّلي الكامن أبداً في الأعماق يترصد الانفكاك والتفجرّ.

باخوسيّات الموالِد بين الأذكار والتسابيح.

باخوسيّته ترقص له على حصى شطّ البحر الصاخب، عاريـة تمامـاً تحت غلالتها الحمراء الشفافة، إغواء تموجات الجسد المنتشي ببهجته فاجأه بالانتصاب والقذف وصرخة الوجدان والوصول.

أما الآن فهي سالومي – أو مانورة – ترقص فـي غلالتهـا السـوداء الشفافة الموشاة برقائق الترتر الصغيرة الفضية التي تهتز بموسيقية خافتـة الرنين، قد حلّقت في غيابات سمائها، كما حلّقت إيـزيس فـوق الـوادي الخصيب بحثاً عن أوزيريس حتى وجدت عضوه الرابع عشر الـذي بـه الحياة وبدونه لا حياة، خلعت ريشها بعد أن عدّت عتبة الغرفـة الخاويـة

وعادت سبع مرات، أمامها الآن، على الحصيرة الجديدة جافّـــة الأعــواد، صينية مستديرة متوهجة بنيران مكتومة في مادتها البلّورية.

في الصينية رأسٌ مجزوز.

العنق نزفت عنه كل دمائه، يبدو في تألُّق البلّور المحمر، صافياً نقيـــاً كأنه منحوت لكن مادته اللحم الذي تطهّر من كل لوثة جسدية. مـــا زالـــت جسدانيته المبتورة الناقصة تنبض بلا صوت.

المخزنجي يمد يده إلى عنقه لكنه لا يجرؤ أن يمسك، حتى يتحقق..

الغجرية هي التي اقتحمت حياته – جزّت رأسه..

كان حتى الآن يرفض، كأنه يرفض نفسه أيضاً، كأنه يغرق في موجة من القبول والرفض هي موجة من الحب والكره معاً.

الآن رأسٌ مجزوز.

وهي تحت قدميه في رقصتها، تتلوّى بموســيقية جســدها الملتصــق بالأرض.

شُبيّك لُبيّك، جاريتك وملْك إيديك. طلباتك ياسيدي يا مــولاي؟ بــاخ؟ هايدن؟ ويسكي بالثلج؟ إنتَ تؤمر حبيبي..

بطنها الملفوف بعصابة حمراء عريضة يحتك بالخشب المصقول يثيــر عنده شهوةً غير محددة.

هل الجسد وحده أم الجسد في الحب هو الذي يحيا بالموسيقى الكلاسيك والويسكي.

صرامة الجنس وحدّته، نظرة جنسية حادة قاطعة آمرة ليس فيها حنــوّ بل جديّة الشهوة وقصدها المعقود.

ليس فيها لين ولا طراوة ولا خضوع.

المخزنجي هو الذي يدير ذراع الجرامفون القديم: علبة مسطحة سوداء، الأسطوانة الكبيرة على القرص المستدير، صوت سيده، الكلب يصغي إلى صمت القوقعة المعدنية المفتوحة على أمواج بحار الجسد.

ترقص له مانورة - سالومي - لواحظ - محاسن - رامة التي لم ترقص له قط، يهتز القرط الواسع المستدير تحت أذنها على الوجنة البارزة قليلاً لوحتها شموس صحاري لا عداد لها، الخلخال الفضيّ السميك مضلّع الجوانب يبدو ثقيلاً لكنه يرنّ بخفة رنات موسيقية مع ضربات الطار وصلصلة الصاجات وأنين الناي بلذة الشجَن ونبضات الرقّ في يديْ عوّاد الزمّار اللتين لهما حياة مستقلة عن صاحبهما، حياة محمومة دوّارة مستمتعة بانطلاق الحرية غير المحدودة المحكومة مع ذلك بقانون مضمَر لا يعرف كنهه أحد، ولا صاحبهما يعرف، وقد تخلّى الليلة عن مزماره العتيد، حتى يتيح لليدين وحدهما مع الرقّ أن تعرفا ذلك القانون الخفيّ. موسيقات الجرامفون إذ تدور الأسطوانة تحت إبرتها على القرص - مهما كان إتقانها، مهما كانت دقتها - لا تعرف ذلك القانون لأنها تفتقر إلى نوعٍ من الحياة، من الحرارة، تعرفه فقط موسيقات اليدين المدّربتين الملهمتين معاً. تآلفٌ فذّ، قال المخزنجي، بين المعلّب المضبوط الآليّ والطازج العفويّ الخامَ.

قال ابن سيرين "الرقص في المنام همٌ ومصيبة مُقلِقة، ورقص المرأة وقوعها في فضيحة".

"أما رقص من يسير على البحر فيدلّ على شِدّةٍ يقع فيها".

لا.

ليس هذا بالمنام.

ولا على شطٍ البحر، إلا إذا كان بحر الأوهام.

هذه موسيقات هيامهم التاريخيّ، وهيامهم الغراميّ على السواء

يهيمون على وجوههم في البراري والصحارىَ وعلى هوامش الوادي.

يحملون معهم الطواعين يجلبون معهم النحس وطوالع الشُوم، لكنهم وحدهم يعرفون هذا العمق في المتعة بالحياة، وحدهم يصعدون بنشوة موسيقى الجسد إلى ذُرَى سامقة لا يلحقها أبداً السُكان القارّون في الوادي الخصيب إذ أرسوا مراسيهم في الأرض وارتبطت نياط قلوبهم بالزرع والضرع والغرس والقلْع، هم أنفسهم نباتات غليظة القوام طالعة من بذارٍ عريق، ودائم التكرار، لا يحير حراكاً خارج حدّ الحقل المرسوم، في حضن حورس الصقر الراسخ الذي ضمّ جناحيه ونزل بهما إلى الأرض.

هل هؤلاء الغلابة الذين يقدسون الحرية – أي لا يعرفون معنى للحياة إلا في الحرية – أكلوا لحوم البشر، نبشوا القبور، طلّعوا منها الرميم، وعملوا من الجثث أحجبه وأدوية وتعاويذ بالسحر والرُقَي بصلاة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وبركات أهل البيت؟

خطفوا الأطفال الرضّع وعجنوا خبزهم بدمائهم الحارة؟ هم الذين وسموا بالنار للاستدلال عليهم.

هؤلاء المشرّدون الذين عملوا عبيداً وكانت نساؤهم تُساق لمتعة الجنود وأطفالهم – هم – ينتزعون لخدمة السادة. الأشغال الشاقة لرجالهم دون مقابل. حفلات "صيد الغجر" على غرار صيد الثعالب والذئاب، ضربهم بالطبنجة والخنجر. صَيْد الساحرات – كلهّن ساحرات – وإحراقهن مصلوبات على النار حتى تُخلص أجسادهن وأرواحهن من "الشرير" ثم يأتي هتلر فيرميهم في معسكرات الإبادة الجماعية، لعلّ أكثر من نصف

مليون قد هلكوا في هولوكست فعليّ مسكوت عنــه، إذ جــاءت الفتَــوى الشهيرة من "معهد النقاء العرقي" في برلين سنة ١٩٣٧ بإبادة الغَجَر حفاظاً على نقاء – ونفاذ – الجنس الآريّ. الإبادة النازية للغجــر تمضــي دون اهتمام من الميديا الطاغية، على عكس الضغط اللا إنســاني، والتضــخيم المستمر الدؤوب، بمناسبة وبغير مناسبة، على الهولوكست اليهودي. هتلر قتل منهم نحو مليونين.

المذابح والمجازر والمقاتل والمحارق تسمى أحياناً مجرد "تجــاوزات" يعني هي أيضاً يمكن تجاوزها، ويَحدُث الإغضاء والطناش.

لم يبق منهم إلا نحو سبعة ملايين في العالم كله. أحيانــاً كــان يقــدّر عددهم بنحو عشرين مليوناً. نظموا أنفسهم في العصر الحديث، انعقــد أول مؤتمر عالمي للغجر في لندن سنة ١٩٧١ حضره مندوبون مــن عشــرين دولة ونشأت عنه "المنظمة العالمية للغجر" وانعقد المؤتمر الثاني في جنيف ١٩٧٨ وجاءه مندوبون من ٢٦ دولة، أما المؤتمر الثالث – ما شــاء الله ! – ففي جوتنجن في المانيا سنة ١٩٨١، وبعد ذلك انقطعت أخبــارهم عــن المخزنجي الذي عكف – هو – على تصيُّد هذه الأخبار مــن تضــاعيف الكتب والدوريات بقدر ما استطاع، لم يكن المخزنجي – عندئذ – قد عرف الإنترنت.

الطار والرباب الرق والمزمار تلويات الجسد الانثوي في غلالةٍ شفافة قديمة تآكلت أطرافها ولحق بها تراب الأرض ورمل الطريق.

هل كانوا – هل هم – من سلالة المنبوذين الــذين لا يصــح للمــؤمن صحيح الإيمان أن يمسهم حتى لو وقع عليه ظلّهم صدفةً فعليه أن يتطهــر سبع مرات بمياه النيل غير الراكــدة المتدفقــة الجاريــة عبــر الأجيــال والأطوال.

قالوا حبيبــك عيـــا   قلت هاتوه جنبي

يا مخدته ريش نعام   يـــا مِسَنِّده قلبـــي

يشرب من الشربات   ياكـــل من الوْردِ

لَجْل يقولوا دخــل   عيّان خرج جِنديَ

صلِّ على حضرة النبي   والنبي دانا قلبي تولّعْ

والنبي دانا قلبي داب

الفصل السادس

عاد المخزنجي إلى البيت في راتب باشا، خلسةً، بسرعة.

أعدّ لنفسه حقيبة صغيرة وضع فيها جلابيّة النوم والشبشب وعدة الحلاقة والقميص الافرنجي المكوي، وكتاب الشعر الإنجليزي - ضروري! كالمعتاد ! - وكتب يوسف كرم عن تاريخ الفلسفة اليونانية والوسيطة والحديثة.

قالت له أمه:

- بتعمل إيه يا يوسف؟ ايه الشنطة دي؟

قال: مسافر يا ماما في شُغل، عندي شغل في فرع الشركة في الأقصر.

قالت: يالهوي! الأقصر.. دي بعيدة أوي.. شغلك حياخد كثير؟

قال: مش عارف.. يمكن أسبوع.. بالكتير اسبوعين تلاتة.. مش عارف. بسّ حاكتب لكم أول ما أوصل، أول ما أعرف حاقعد قد إيه.. ما تقلقيش أمّال.. شغلانه كده وتخلص على خير.. بإذن الله!

كان يعرف أنها رحلة محفوفة بالمجهول.

مانورة قالت له إنها عرفت - لم تقل له كيف - أن البوليس يبحث عنه، سأل على عنوان بيته، هل كانت علاقتها بالبوليس بحيث استخلصت منهم السّر أو النيّة المعقودة، هل كان ذلك بالحيلة أم في الفراش؟

لكنها لم تقل له كيف يلحقه التهديد الأخطر على يدي وضاح الحدّاد – ألمحت له فقط، بوضوحٍ كافٍ، أنّ جماعتها موقنة أن له يداً في مقتل ريم.

الجماعة يعرفون إن النوم مع غجرية يقترن بالموت.

يومها، في بكرة الصبح، قبل أن يصل إلى كفر عشري، كان قد نزل من ترام المكس وسار، كعادته كل صباح، في الشارع الخاوي المحاذي لترعة المحمودية بمياهها الداكنة المترقرقة بهدوء.

لاحظ المخزنجي أن مخزن المدابغ القديم المهجور، مفتوح، على غير المألوف.

اقترن من المخزن، دخل، رآها

صغيرة القد، هادئة ساكنة جداً، وسيمة، مغمضة العينين، تكاد ترفّ على وجهها، في نوع من الرضَى والاستكانة، ابتسامةٌ خفيفة.

جلابيتها السوداء الشفافة انحسرت قليلاً عن قميصها الداخليّ غامض اللون وبانت سيقانها الرشيقة المسحوبة، سمراء أسيلة، كأنها فقط تأخذ تعسيلة ع الصبح.

إلا أن هذه البقعة الداكنة تحت ثديها الأيسر تشي بأن شيئاً ما لا يستقيم على وجهه.

عندما اقترب قليلاً من البنت المرميّة على أرض المخزن الرملية الترابية، أوقفته الصدمة، لا يخطو خطوة واحدة، مذهولاً، لا يصدّق.

كانت ريم ما زالت تنزف دماً نزراً شحيحاً، يتقطر قانياً تحت عنقها، يبلل الجلابية السابغة.

الجرح عميق غائر لكنه يبدو مجرد بقعة سوداء أحلك سواداً قليلاً من نسيج الجلابية الشفاف، أما البقعة الأخرى تحت صدرها فقد كانت تنداح ببطء.

طعنتين نافذتين في عمق الجسد الذي لا قوام له، متهدلاً، مُلقـيً علـى الأرض.

اعتدل من انحناءته عليها، وجد نفسه محاطاً بحشدٍ من عمال المـدابغ والبوابين والباعة السّريحة والعيال المتزاحمين وبنات صـغار بشـعرهن المنكوش ومرايلهن العَبَك وشنط المدرسة. من أين طلع كل هؤلاء؟ يا ساتر يارب يالطيف اللطف بعبادك بسم الله الرحمن الرحيم إيـه اللـي جـرى ياولاد؟ مين دي يا جدعان؟ غجرية؟ مالها؟ مضروبة؟ مين ضـربها يـا ساتر. طب استروا لحمها يا ناس نجيبوا الإسعاف؟ فيها نَفَـس ولاّ السـرّ الإلهي طلع خلاص؟ يا أالله يا أرحم الراحمين، صيحات نداءات تـدافعات بالأكتاف والأذرع والنظرات كلها حائط أو سور أو حجاب قام فجأة بينـه وبين الناس، بينه وبين البنت المقتولة المرمية على أرض المخزن، كأنهـا شيء.

جرى المخزنجي كأنما على الرغم منه، كأنه يهرب من جريمة.

البوليس، الكركون، المحضر، التحقيق سين وجيم، الملازم ثاني واضحٌ أنه متعاطف مع طالب الفلسفة المكافح الذي يشتغل في المخزن رقم ٦ لكي يستكمل دراسته الجامعية، مثقف هاديء باين عليه ابن ناس، لا يُعقل أنـه قاتل بأي حال، أياً كانت علاقاته بجماعة الغجر هؤلاء. أسـئلة روتينيـة بحتة، الضابط يستكمل إجراءاته ويسـدد خاناتـه، يحفـظ التحقيـق مـع المخزنجي من الأوّل ولا يحيله إلى النيابة ولا حاجة، المحضـر مفتـوح والنيابة تعمل شغلها، المخزنجي مجرد شاهد لكنه لم يشهد الجريمـة، بـل كان – ربما – أول من شاهد الضحية بعد مقتلها. لكـن اليـوم، بطبيعـة الحال، كان عصيباً عليه، خصوصاً بعد مظاهرة أمس الصاخبة.

تلاحقتْ عليه الأحداث.

في نومه المرهَق، ليلتها، لم تكن رقصة مانورة شيئاً من هذا العالم.

قالت له: البوليس؟ ليس الرجال فقط من أنام معهم أنا..

قال: مخاويّة؟ لك قرين من تحت الأرض؟ بشيءٍ من السخرية أولاً، ثمّ بجدّ.

قالت: بل أعظم.

وجد نفسه يقف موقف الندّ أمام عوامل فوق انسانية: الصحراء نفسها في شساعتها والرياح الهُوج في اقتحامها والنسمات الرُخاء في حنانها، والشمس، والقمر، والنجوم الأثنى عشر.

قال: رع آتون، اوزير ملك النور الأخير، حابي الإله المخصِب الدفّاق.

قال: توقفني، في حبها، أمامهم.

وأيضاً بوسيدون إله الأمواج الزرقاء تتراقص عليها أعراف جياد الزَبَد البيضاء.

لم تكن بحاجة أن تقول، بصريح التعبير، الصحراء والسماء والرياح والبحار والشموس والأقمار والنجوم وأنهار العالم تدخل إليّ. تدخلني. من أنت؟ ماذا بوسعك أمام عناصر الكون الأولية؟

لم يكن بوسعه – حتى – أن يحاججها.

لا بالتحدي ولا بالمناقضة.

ولا بالامتثال.

كل شئ كان معلّقاً، دون حسم، كالمعتاد.

الّلارد – قال – هو الردّ الوحيد الصحيح. هو الردّ الوحيد فقط.

ما أغرب أن يستحيل الحلم إلى شيءٍ آخر تماماً.

في جوّ الموالد. سيدي البدوي؟ مارجرجس؟ سيدي الامبابي؟

الأشواق المهدرة في صخب الاحتفالات الوثنية تقريباً.

اندفاقات الحب التي سقطت على الرمال.

نداءٌ في الجهر وفي السرّ على السواء.

ولا إجابة.

يذهب فيجدها على طبلية أكْل، حولها رجال، من رجال جماعتها، دون أيّ اهتمام بإجابة ندائه. ليس في ذلك كله غرابة أو ضيق من جانبه. تقول إنها كانت ستردّ عليه حالاً. يجد أنها هي هي، وريم القتيلة، معاً.

تمرّ عليه بعد أن نهضت من بين رجالها، رشيقة متوفزة عليها شال حريريّ منسدل حتى الركبة، على اللحم. الوجه المستدير الصبوح، الجمال المتناثر حول حضورها مُشعاً.

ثم جوٌّ صافٍ يسود الحلم – التخييل – الواقع، أجمل وأنقى من أي شيءٍ عرفه في الواقع.

الأفلاك العلوية تدور بلا نهاية حول السماوات الزرقاء الداكنة النقية التي في داخله. الفراغات التي لا يمكن أن تمتلئ.

لم تكن تنظر إليه مباشرة وهي تحرك جسدها، ببطءٍ ونعومة، في رقصتها السالوميّة، قائلة تحتفل بسقوط رأسه في الطَبَق المتوهجٍ المستدير، في عين الشمس.

وهي بالجلابية الصعيدي الرجالي طويلة الأكمام فضفاضة واسعة التقويرة منسدلة على جسدها اللدن تجسيم رجاليّ نسويّ معاً يوقظ في داخله المرأة المتكثّرة الشتّى، إذ يسقط القماش الحريري الأخيميّ على

النهدين المكوّرين لا يحجزهما شئ ينفران تحت النسيج المخطـط بـأقلام حمراء رفيعة جداً ومتقاربة جداً على أرضية سِمْنيٍ.

ظلال الروح المنسابة على ربوات - ووهاد - الجسد.

الشعور المرهف المدغدغ بالآخر الأنثويّ في روحه وجسـده، ازدواج نغمتين موسيقيتين تؤلفان كلاً متناغماً شاملاً.

في نوعٍ من غيبوبة صافية ساطعة النور يرى فخذيها المدملجتين تحت النسيج الهفهاف، مع الركبتيْن المدورتْين، كأنهما من غير صـلابة تـدوير العظْم، كمنجة مزدوجة التجويف مشدودة الأوتار. تعزف موسيقى الموت، بينما هو سكران بفرح القلب.

قال:

- مطارَد أناَ. يطاردني القمع، والبغض، والحق والحب معاً، ومع ذلك فالذي يستأثر بي حقاً هو هوس لا برء منه بالرقصة الأنثوية هـي نفسـها رقصة الأفلاك السماوية في مسابحها السرية، رقصة المحبة.

رقصة الرجل - يوسف؟ - هو صورة الله الذي نفخ فيه من روحـه، يحنّ إلى الفناء فيه، إذ المحبة في أصل الخلق كانت، والـى مـآل الخلـق تكون في نهاية الأزمان، رقصة إيقاعها محتوم مكتوبٌ في لـوحٍ محفـوظ مشتعلٍ أبداً بنار لا تحرق بل تضيء. رقصة الخلْق، رقصة الحق، رقصة خروج المرأة - بكل أسمائها - من ضلعٍ مبتور، وحنينها إلى التضامّ مـع ضلعها المنادي أبداً الداعي أبداً، حنينها إلى آدم، حنين آدم إليها، حنين الإله إلى عبادة المحبين، الحبّ رقصة لا يخمد أوراها ولا يتوقف دورانها، هـو أصل المحبة الإلهية، حبّ طرفيْ الرقصة الأبدية التي تدور حـول كمـال الوجود ولا نهائية تحققه.

في هذه الرقصة يكمل الرجل بالمرأة، وتكمل به.

كأن معرفة الله ترتبط بمعرفة المرأة، في تلك الرقصة الأبدية.

مرآة الذات الإلهية الدوّارة تحت نورٍ لا قرين لبهائه وعنف حنانه معاً.

محطة مصر بالليل خالية تقريباً.

الأعمدة الرومانية وأقواس المبنَى الدائرية تنزل عليها أنوار كهربائية ساطعة موحشة توحي بأنها، تقريباً -ليست من هذا العالم.

شبّاك التذاكر مفتوح. القضبان الحديدية تلمع بانعكاس النور، فتحة الشبّاك تضيق أمامه، وتضيق، يتكلم. يقول للرجل القابع وراء الشباك شيئاً ما. هل يقول له تذكرة واحدة الأقصر رايح، قطْر الليلة؟ مع أنه يسمعه بوضوح ويبدو أن الرجل قد سمع أيضاً، ها هوذا يقلْب أمامه دفتر الحجوزات، وينظر إليه، ثم يعود يُحد النظر - يتظاهر بأنه يقلْب الورق أمامه بلا مبالاة - هل هو يراجع، مَثَلاً، قائمة سوداء أمامه؟ قال المخزنجي: لست مسافراً للخارج أنا. ليس مطلوباً مني أن أطرح أمامه جواز سفري وتذكرة السفر إلى خارج البلاد، ليس الرجل من بوليس المطار. ماذا يراجع؟ لماذا يقلّب كلّ هذه الأوراق أمامه؟

٤٨ جنيه و٣٠ قرش.

التذكرة التي دفعها إليه من النوع القديم: قطعة صغيرة مستطيلة من الورق المقوي الرمادي الداكن عليها أرقام مدموغة غائرة في لحم الورق: رقم القطار وساعة القيام والثمن، وعلى ظهرها بالقلم الحبْر رقم العربة ورقم المقعد، فيها ثقب دائري صغير، ياه - هل هذا النوع من التذاكر ما زال مستخدماً؟ ألم تحلّ محله البطاقات الحديثة التي عليها علامات اليكترونية ممغنطة؟

لكن العربة التي صعد إليها، المكتوب رقمها على التذكرة، مضبوط، كانت عربةِ بضاعة مكشوفة. لم يجد أدنى غضاضة ولا غرابة في أن يصعد إليها، كما لو كان ذلك مسلّماً به متوقّعاً، عاديّاً. كان عليه أن يقفز على جدارها الحديدي الواطيء. وجد نفسه وسط جموع مكدسة محتشدة من المسافرين، جالسين، راكعين على رُكبهم، ممدديّن، كلّهم، على أرضية العربة المفتوحة، ليس هناك مقاعد، ولا مقاصير، لا شيء غير أرضية حديد باردة. جدران العربة الواطئة قصيرة مطلية بلون بُنّيّ مائل للصدأ، تحت سماء صافية مؤلمة الصفاء، عميقة الزرقة، ملأتها نجوم دقيقة وكبيرة، خافتة وبراقة محددة كأنها مثقوبة في جلد السماء الناعم بإبر حادة متراوحة المقاييس. ثَمّ هواءٌ ليليّ يهب على وجهه الذي تفصّد بالعَرق، يأتي من ناحية البحر محملاً ببلل خفيف لكنه محسوس.

المهجّرين بأمر الحكومة والمهاجرين من أخطار حقيقية أو متوهمة: عساكر روميل والدوتشي أو عساكر جولدا مائير وشارون، من الإسكندرية ومن السويس والإسماعيلية وبورسعيد أيضاً. التي استحالت أطلالاً وركاماً وأنقاضاً.

سقط بين عائلةٍ من أمّ ترضع طفلها من ثدي مكشوف يبدو كبيراً لكنه جافّ ومتهدّل مغضّن، تتشبث بجلابيتها بنت واسعة العينين مفتوحة الفم من الدهشة، ينام على حجرها ولد، في الخامسة يمكن أو السادسة، ارتفعت جلابيته عن وسطه وبانت بضاعته الرخوة المتدلية، أبوه – فيما يبدو – أسند جسمه إلى جدار العربة، مفتوح العينين وكأنه صاحٍ نائم، أمامهم ما يلوح، في نور الليل الشحيح، كأنه قفة ضخمة مغطاة بقماشه كثيفة النسيج لا تبدو نظيفة أبداً، وابور جاز وكوز صفيح وحلة فوق حلة أخرى وطشت غير كبير كلها مكومة تحت لحافٍ لا يغطيها تماماً، تلتصق بها تقريباً كومة أخرى من الأولاد والبنات، مرميين على أحدهم الآخر في سلْطَنة نوم

عميق لا يبالي بشيء، أصوات تنفّسهم ليست بالضبط شخير النائمين وليست أيضاً أنفاس الصاحين، لغط الكلام والنداءات الخافتة تحت سماء الليل، كأن الناس المتزاحمين المتلاصقين في العربة المكشوفة غير قادرين، أو غير راغبين في الجهر بأصوات عالية، الأمهات والآباء والأبناء الكبار يجهدون في ترتيب أوضاعٍ غير قابلة للترتيب، يا بتّ اتْبَطّي اسكتي واتخمدي يا واد غطي نفسك يا واد يادي الجُرس ياخواتي ابعد شوية عن أختك ياللي تنشك في جنبك يادي النيلة الرجل يزعّ في الولد بصوت يائس غاضب إتّاخر يابني خليني امدد رجْلي يا ولد، القاطرة تصفر فجأة يدوي صفيرها تحت السماء خارج سقف المحطة الحديديّ العالي الذي يتراجع قليلاً قليلاً ودقات العجلات على القضبان تضرب موسيقاها المملة الرتيبة لكنها بهيجة فرحة على نحوٍ ما، تتقلقل عربة البضاعة المحتشدة بالناس راحلين إلى محطات معلومة لكنها بعيده وكأنها غير محتملة وغير حقيقية.

البيَاصة ضُربت سقطت البيوت على أهلها الورديان استحالت ركاماً عالياً ناتئ الحجارة مشعث الحوافّ مينا البصل أصبح كوماً آخر وعر المرتقى جنب كوم الدكة وقد تهدمت بيوته على ربوته وتهاوت. تبدو له الإسكندرية وهي تتراجع كأنها ربوة أخرى من الأنقاض المنهارة، مهدَّمة، صامتة، موحشة، راقودة قرية صيادين هجرها الله وغادرها أهلها أو هم في سبيلهم إلى أن يخذلوها خذلان المحبين.

قال المخزنجي:

– هل عشت هذا كله في حياةٍ أخرى؟ في رواية أخرى، طريق النسر أم أبنية متطايرة، صخور السماء يمكن.

قال: وإيه يعني. فليكن. هنا حياة جديدة، ورواية جديدة.

تتخايل في نور الليل الساكن غير المقمر انعكاسات الماء من الملاحات على الجانب الأيمن من القطار الذي انتظم سيره الآن يشق طريقه المرسوم.

في عربة الدرجة الثانية المكيّفة المزدحمة بالأفندية والستات المحترمات في كرنفال الملابس العادي، من المحجبات إلى لابسات الفساتين الچابونيز أو نُصّ كُمّ، والبهوات الراسخين راسين على المقاعد التي كانت وثيرة نظيفة، يهوّمون في نعاس متقطع، يقرأون نتفاً من جرائد ومجلات ملونة ويقضمون من ساندويتشات مُعدَّة من قبْل في البيت، يشربون بصوت شفطٍ مرتفع متلذذ من أكواب الشاي الذي قدمه لهم عامل البوفيه الجوّال بفرقعة ملعقته على زجاج أكوابه. هند رستم ترقص على أغنية فريد الأطرش، بجسمها الملفوف الرشيق، في ممر القطار الذاهب إلى لقاءات درامية في حبكات مصنوعةٍ بقدرٍ ما من الإتقان، على إيقاعات دقات أوركسترا – أو تخت موسيقى بلدية، خفيّة غير مرئية، تتأود باستمتاع بين صفّي المقاعد على تصفيق الكورس المنتقَى بقدرٍ ما من العناية: سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة: حبيبي سلامته سلامة ابتسامته. إيقاع الأغنية، والرقصة، لا صلة له بالكلمات التي لا يستطيع أن يحددها أو حتى أن يذكرها بدقة، يا وابور الساعة اتناشر يا مجبّل ع الصعيد، كلمات كلها قابلة لأن يحل بعضها محل بعض، أن تتبادل مواقعها دون أن يختلّ شيءٌ لا من اللحن السهل المبتذل ولا من الكلمات السهلة المبتذلة.

تتابع الحقول بخضرتها الداكنة في الليل، منسكبة على أرض الوادي، تهتز أمواجها. تتسلل نسمة باردة إلى المخزنجي الذي قرفص مُقعياً بين أكوام الستات والعيال والكبار والألحفة والقفف والحلل والمواعين والشنط الجلد التقليد المربوطة بحبال رفيعة ملتفّة تضمّ أحشاءً منبعجة تكاد تفلت من ثناياها أطراف هدوم رثَة.

ضمَّ چاكتته حوله. النسمة الباردة نفذت إلى عظمه حتى وهو في دفء زحمة الناس حوله، وقد أخذوا ينتبهون إليه، كأنما لأول مرة، بعد أن اتخذ القطار مساره بانتظام، إذ هو وسطهم وحيد ليس معه عائلة ولا أحد، ينظرون إليه، فيما كان يحس، بشئ من الاستغراب وربما بشيءٍ من العطف والإشفاق.

الستّ أمّ العيال، جنبه، فاتحته:

– يا خويا اسم الله عليك هوّ انتَ كده لوحديك؟ من غير أهلك؟ ربنا يحفظك ولا ينصر اللي يعاديك يا ضنايا.

لم يعرف بمَ يجيب.

هل كان يستطيع أن يقول لها إن أشياءً كثيرة قد اجتمعت عليه، تطارده، أن يقول لها إنه يهرب من مطاردة الحبّ والبغض معاً؟ اتّقاءً للقمع واتقاءً أيضاً للانطلاق بلا حدود، ما أخطر مثل هذا الانطلاق وما أشد رهبته! أم يكتفي بأن يقول لها إنه رايح في شغل في الصعيد.

قالت له: بالسلامة يا خويا. إن شاء الله بالسلامة.

خطر للمخزنجي، في دفء زحمة الناس الغلابة الطيبين: هل يعثر عليّ البوليس؟ هل يعثر عليّ وضاح المنتقم؟ هل تعثر عليّ مانورة العاشقة؟

كان القمر، تحوت، إله المعرفة، يسكب أيضاً نوره غير الأرضيّ على عربة البضاعة الذاهبة إلى مصيرٍ محتوم.

عاد المخزنجي إلى الأرض التي طالما طرقها وجاب نواحيها.

أرض سحرية واقعها الليليّ أقوى وأكثر واقعية من أي واقع نهاريّ صاحٍ. أرض السكك الحديدية. القطارات التي لا تصل، وعليه أن يلحق بها، ينتقل ملهوفاً من رصيف إلى رصيف، ينزل وهو يلهث نفقاً وراء

نفق، ويعود يرقى سلالم متلاحقة دون أن يلحقه إجهادٌ أو ملل، ويفوته القطار. من وراء القضبان الحديدية المتشابكة على نافذة ضيقة - يطل عليه معاون محطة بعيني ذئب عجوز محبوس، يصل إلى فندق كان قد حجز فيه غرفة من زمان لا هو هيلتون ولا فندق البرلمان في العتبة الخضراء بل هما معاً في فندق واحد لا تنتهي ممراته وكل غرفه المرقمة موصدة الأبواب صامتة في غربة تقربه وكأنها تعاديه، فلا يجد مكاناً له. يبحث عن غرفته التي معه مفتاحها ولا يجدها، يذرع ممرات صامتة طويلة ساطعة الضوء خاوية تماماً، بين أبواب غرف متعاقبة يقرأ أرقامها ليس بينها رقم غرفته، يهبط إليه مصعد عريض الأرضية مفتوح الأبواب - مثل مصاعد البضاعة في البنايات التي ما زالت تحت التشييد، يقف به بين الطوابق، ومهما ضغط على الاستنجاد ومهما تكلم في تليفونات الطوارئ فما من ردّ وما من استجابة للنداء حتى إذا أطبق على صدره الضيق واشتدت وطأته وجد أنه يخرج من هذه الأرض التي طالما طرقها وجاب نواحيها.

كان قطار الصعيد يشق أرض الوادي بالليل.

يا وابور الساعة اتناشر يا مجرّب البَعيد.

وكان المخزنجي قد اسند رأسه إلى ظهر مقعده بعد أن أماله إلى الخلف قليلاً، وأوشك أن يغلبه النعاس الذي طالما ترجّاه وسعى إليه ولم يأته بعد في العربة المقفلة المدفّأة بتكييفٍ يخرخر ويخشخش ويسعل سعلة ميكانيكية جافة تشتد حرارته فجأة حتى تكاد الأنفاس تختنق ثم يخمد تماماً ويحلّ صمتٌ مكروب فيه إحساس التوقع والترقب الذي لا ينتهي إلى شيء. غطيط البهوات والافندية الذين يرنّق النعاس بعيونهم ثم يفتحونها على

نظرة خاوية لا إدراك فيها، شخير مرتفع رتيب متراوح الحدة والخفوت من الستّ النحيفة التي مال رأسها على جنب أراحته على كتف زوجها الغائب هو أيضاً عن دقات القطار المتعاقبة في خبطها الرتيب. فلقلة عجلاته على قضبان تبدو غير مرحبة بها أو حتى مستعدة لها، تصدم الأسماع فجأة كأن العالم يتدهور في هوة ضجيج مفاجئ ثم يستعيد مساره الرتيب.

قال المخزنجي لنفسه: غير صحيح، غير معقول.. أنا أرى خيالات من محض وهمي. نزع نظارته من على وجهه ببطء ودعك عينيه اللتين أحسهما منتفختين قليلاً.

لم يصدق أنه رآه بالفعل - يمر كالشبح - من باب عربة الدرجة الثانية إلى العربة التالية.

هو، بلا شك.

طويلاً، ناحل العود، يعتمر عمامته الصغيرة البيضاء هي نفسها، وعلى جذعه العريض صديريته القصيرة مفتوحة من غير أزرار على الفانلة الخشنة القوية نصف الكمّ، وساقاه المكينتان بعضلاتهما المفتولة واضحة تملأ البنطلون الجينز الباهت الذي نصلت وبرته بوضوح على الركبتين.

مُشعَّث اللمة، قشِف الهيئة، لا تحركه إلا شهوة واحدة. شهوة القتل، أو هكذا رآه. لكن الشبح مرق من أمام ناظريه المتعبين اللذين تيقّظا دفعة واحدة وانجاب عنهما كل أثر للوَخم. كأنه لم يظهر قط، لم يعد المخزنجي واثقاً - بل حتى متشكّكاً - أنه رأى - حقاً - وضّاح الحداد، قال أبداً، هذه مخاوفي أو هواجسي تتجسم لي رؤىً وربما هلوسات بصرية، ليتني فقط كنت قد رأيته حقاً، كان يمكن عندئذ أن أتصرف، ماذا؟ كيف كنت أتصرف؟ لا أدري، لكن كنت سأقف على أرض ثابتة، أعرف أن هناك

خصماً – أو عدواً – متربصاً، شرس النيّة، خطيراً، وعليّ أن أواجه الأمر، أياً كانت المواجهة.

لكن الآن؟

هل هو هناك أم أنه كيانٌ، صنعته، أنا، من ساسه لراسه، من نسيج وساوسي؟

كانت أنوار القطار المنطلق في قعقعته وقلقلته تقع على صخور الجبل في جانبي الوادي الذي يضيق هنا ويطبق على شريط النيل العريض الرقراق في رهبوت عتمته وعلى الغيطان التي ترتمي على ضفتيه يحسها محدودة محاصرة في خصوبتها الليلية يراها من نافذته من دفء التكييف في عربته التي سقط عليها وَخَم الرَهَق.

القطار يدخل بكل سرعة إلى محطات صامتة خاوية يلقي عليها أنواره وتتخايل مبانيها القليلة واللافتات التي تقول عن اسمها. تثب إلى الوجود كأنما انبثقت من تحت الأرض ثم تؤوب إلى انقضاء كأنها لم توجد قط.

لا تنتهي هذه الرحلة – هذه المطاردة، هذه المسيرة من الفرار أو إلى المواجهة، لا يدري.

قالت له: لا أظن أبداً أنك كنت، كما يقال، "ولداً شقياً" مغامراً مثل كل الصبيان. أنت من يومك، عاكفٌ على نفسك، حالم وقارئ. لك عالمك الداخليّ الخاص. صحيح؟

قال: لا. ما أشد غربتك عني. ما أقل ما تعرفين عني.

قال المخزنجي:

– ما أقل ما يعرفن، جميعاً عني.

قال لنفسه: يا سلام.. أبو الهول حضرتك؟

ما الذي أعاد المخزنجي إلى قرية جدته لأمه، إلى سنوات صباه القريبة، إلى تلك الساقية القديمة المهجورة على شط النيل، تراكم عليها تراب الإهمال وتجمدت كتل صغير من الطين الجاف على فروعها المكسورة وفي القواديس الخشبية المشققة، ما الذي دفع به إلى رأس الجسر الحجري الداخل إلى قلب النيل، يقف على حافته وينادي جنيّة النيل أن تطلع له: يا جنيّة.. يا أجمل جنيّة.. تعالي لي أنا في انتظارك أنا هنا يا جنيّة يا أجمل جنيّة، ولا تطلع له الجنيّة ساعتها ولا تستجيب لتحديه لكنها تنتظره حتى تأتيه على هيئة رامة العذراء البغيّ القدسية هي نفسها ريم قمر القلوب مرهفة القد متطايرة القوام ومانورة عين الليل فاحشة الجمال ساحقة وخاضعة ممتثلة له ومنقلبة بالحياة تحته، لعله ما زال – مع ذلك – يناديها، ولعلها مازالت لا تلبي النداء.

قال: لا، هذا غير صحيح. جاءتني وأخذتها في حضني مرات لا عداد لها.

قال: هل هذا صحيح؟

ما الذي كان قد حفزه إلى أن يرتقي فروع شجرة النبق الضخمة أمام باب دار جدته، يصعد متوقّلاً على أغصان تدق شيئاً فشيئاً وينحل قوامها بالتدريج تهتز تحت ثقله مهما كان هيّناً – وتُهدد بأن تسقطه على تلك الساحة الصغيرة التي شاهد فيها أول جماعة من الغجر، دقّوا خيمتهم ونصبوا عدتهم، وعملوا شغلهم في تبييض المواعين والطشوت والحلل النحاس، وفي دقّ حداوي الخيل في حوافرها، في إشعال التنور لأعمال الحدادة القليلة والعزيزة. ما الذي أعاده يسير على سور بيت جده. السور رفيع وطويل وعالٍ ومغرٍ بالتحدي والمغامرة مثل كل الصبيان. ما الذي ذكّره باستقطار الصمغ البلدي من لحاء الأشجار المعمّرة على شط النيل، الرحلة لا تنتهي.

لعله مازال يصعد أغصان شجرة هائلة تترنح وتهتز تحت ثقله، لعله مازال يصعد إلى آخر الفروع الهشة الرقيقة، لعله ما زال يلتقط الخُطَى فوق أسوار رفيعة من طوبة واحدة تُحدق بحياته وتحددها وتفتح أمامه - في الوقت نفسه - آفاقاً غير محدودة وغير منظورة في أصباح الشتاء، دافئاً أو عاصفاً على السواء، يسير تحت الكورنيش على صخور البحر الزلقة من الطحلب، ناتئة من الأمواج، يسير على صخور الشعرِ والحلم معاً زلقة ناعمة.

سقطت أنوار القطار على خيام حكومية منسقة التوزيع على أحد جانبي الوادي بعدها مباشرة دبابات الجيش التي تبدو صغيرة، مدفعها الواحد مشرع على أهبة الانطلاق، جنازير عجلاتها صامتة. الشاحنات العسكرية روسية الصنع عالية مربعة، جَهْمة، مغلقة على نفسها.

من قلب قرقعة عجلات القطار الدؤوب التي لا ينتهي دقها وخبطها إذ يرتفع ثم يهبط ثم ينفجر كأن القطار يتدهور إلى أسفل في هوة لا قرار لها ثم يستقيم مرة أخرى في رتابة تعاقُبِ - تدفُّق العجلات على القضبان مانورة عين الليل تنبثق له - محلّقة ومتقلبة في دورانها على نفسها، في وسط ممر عربة الدرجة الثانية شحيحة الهواء مكيفة متناوبة الدفء والهمود، متراوحة الأزيز والطنين، يسقط فيها صمت ليس من هذا العالم، للغجرية حضور ساطع مفاجيء يمحو حوله حدود ما كان قائماً قبل هذا الظهور التجلي القدسي القادم من أسطورة لا زمن لها.

ألَمّتْ بالمخزنجي لمحةٌ خاطفة من السخرية بنفسه وبما سماه رؤى خائبة.

لكنها رؤى - مع ذلك - غالبة.

ضاربة الرمل هامسة إلى الودع مخزومة الأنف بحلقة دقيقة – ما أجمل أناقتها – من ذهب مشرشر، لمياء الشفتين الليحمتين شهوانيتيْن ونقيّتيْن من كل لوثة ومن كل شوْب.

مانورة فيما يشبه الساري الهندي، سابغاً، منسدلاً على الجسد اللدن يستر ويفضح، كل فخديها اللدنتين المدملجتين تدوران تحت البطن العاري كأنه عجين الجنان تتوسطه سرة لا وصف لها – في ذهنه – إلا أنها حُق اللبان.

نقطة خضراء على ذقنها الأملس المدوّر.

خام الجسد البضّ العاجيّ معجون بأحزان قديمة قديمة، لكنه يُكنّ ناراً لا انطفاء لوقدتها. مطوقة بأكاليل وعقود البيلسان والأقحوان.

وردة الفرج الوحشية وأزهار القلب معاً تحت الأوراق البرتقالية والبنفسجية والحمراء القانية.

أما الأكليل الأحمر الذي يدور بحقويها المتموجين في رقصتها الهفهافة فهو الجسدانية اليانعة والنزوع نحو الألوهية معاً.

أما الأرجوانيّ الضارب إلى ذكنة مشتعلة فهو وفرة العطاء وحيّوية الاقتحام وجرأة الوجود نفسه المتعلق الآن بالألوهية.

العقد الكهرمان الأصفر الذي يطوّق عنقها هو البساطة والبهجة والأمانة مع الذات ومع الآخرين، يُشع من حبّاته حس بموسيقى سلامٍ كامل.

تبقى الورود بحمرتها الخفيفة الخجول تلف النهدين بتلقائية الكرم والإتزان الذي لا عثرة فيه.

الماجنوليا الياسمين الداليا الكريزنتام تأخذ من الجسد الذكي البهيج ذكاءً جديداً وبهجة لا عهد له بها من قبل.

كيف استأثرت بالمخزنجي خيالاتُ الإيروطيقا الموسيقية حملته على أجنحتها الزرقاء الشفّافة خارج سياق عربة السكة الحديد المهتزة المتقلقلة الضاربة في ليل جسد الصعيد؟

الفصل السابع

لماذا كان المخزنجي يحس في داخله فجوةً لا يمكن سدّها، مهما جَهد.

فراغ محفور في حشاياه من الشوق غير المحدّد، والشبق.

المخزنجي - مع ذلك - يحفظ كلام شيخه ابن عربي، من بين كلام مشايخه الآخرين.

ألم يكن ابن عربي يرى أن أتمّ وأكمل شهود الرجل الحقّ إنما هو في المرأة.

الرجل - كما قال - قد صدر عن النفخة الإلهية والمرأة قد صدرت عنه. فهوَ فاعل منفعل في وقتٍ معاً، لذلك فإن هوس المخزنجي بالرقصة الأنثوية - قال المخزنجي - هو الشهادة.

رقصة لا قرين لها إلا رقصة الأفلاك العُلَى في سماوات الوجود وفي سماوات الروح التي لا حدود لها، هل هي فعل أم انفعال؟ اقتحام أم استسلام؟ انثيال أم امتثال؟ وما من جدوى لا في السؤال ولا في جهد الجواب. لا مجال للحديث عن الفعل والانفعال في عالم وحدة الوجود بين العلل والمعلولات. الفاعل والمنفعل - الحقّ والخَلْق - الذكر والأنثى، عينٌ واحدة فرقت بين شقّيها عوارض عابرة مآلها إلى الزوال. هل تُراني فهمت مغزى كلامك يا شيخنا؟ رقصة أشواقي وشبقي نزوع نحو ألوهية الحق أم تعلُّق بها واندماج في سطوعها الذي لا يتصوّر؟

وما الأقنعة والاحجبة والغلالات والصاجات والعقود الذهبية والخلاخيل الفضية ورقائق الترتر إلا عوارض عابرة وبرقشات لا قدرة لها على تمويه جوهرها القدسيّ.

لم يعد صوت العقل أو الحسّ الظاهريّ مسموعاً، حتى لو كان مضمَراً كامناً أو سافراً فاعلاً، هي رؤى "الذوق"، رؤى الإلهام الذي ينصهر فيه الفعّل، يستوعب الفعل ويتجاوزه. كيف أرى "الحق" مجرداً من المادة، كيف أراه من غير الصُوَر؟ ذلك مسعاي الذي لن يصل قط إلى مبتغاه، قال المخزنجي.

لم يكن المخزنجي إلا وهو يضرب في يَمٍ لا ينتهي إلى شاطئ وليس له قرار، أمواج التفلسف – أو التأمل أو الشطح غير الفلسفيّ – تضربه بزَبدها الأبيض المرغّي وكتلة مياهها الصلبة يخترقُها يمخرُ عبابها يخوض في ثبجها بذراعين واهنتيْن مصمّمتيْن وساقيْن كأنه لم يعد يتحكم فيهما بل هما تدفعانه من تلقائهما، وجسم يطفو ويغوص.

قال: هأنذا، في زحمة الناس، كما أحبّ دائماً أن أكون، ومع ذلك فهي وحدةٌ مطلقة – حتى مع حرارة الرؤى ونصاعة الإلهامات، إن جاءت – وحدة بالجسد والروح مع مثول حبٍ لا أعرف ماذا يفعل به.

في عربة الدرجة الثانية المكيَّفة التي تغط الآن في نومٍ قلقٍ تقطعه قرقعة العجلات بدقّاتها رتيبة الإيقاع على القضبان في قلقلةٍ ما تني تخفُت قليلاً حتى تصطفق من جديد، لتعاود الخفوت ثم الاصطفاق بلا كلل ولا توقُف.

في حُمَيّا هذه الإيقاعات التي لا يهوّن التكرار من عنفها، تجسّم له الرجل.

كأنه تكوَّنَ أو تخلّق من لا شيء.

طوالاً، ناحلاً قضيفاً، لحيته البيضاء تتدلّى على صدرٍ يبدو أعجف عظميّاً من وراء ما يشبه عباءة خفيفة سوداء خالصة السواد ليس فيها أدنى شيةٍ أو تطريز على جلبابٍ رقيق داكن أقرب إلى الصُهبة.

عيناه ثاقبتان، غائرتان في محجريهما، كأنه ينظر إلى ما وراء كل المنظور.

مدّ يديْن رفيعتين دقيقتيْ الأشاجع، أظافره مصقولة كأنما مضيئة من داخلها، وضعهما كلتيهما على كتفيه بحركةِ حنوٍ ورعايةٍ وفهْم، كأنما هي حركة أبوية، وقال له بصوتٍ خافتٍ لكنه واضح كلّ الوضوح بل يكاد في خفوته أن يكون رنّاناً على نحوٍ ما، مخارج كلماته محدّدة، قوية:

- لن تجده أبداً، ما تبحث عنه. لأنه لا يمكن أن يوجد، هو غير قابلٍ لأن يوجد، أنت تهرب مما لا مهرب منه، أبداً، لن تفلت منه، سوف يلحقك أينما كنت، حيثما كنت، في أي وقت كنت.

قال المخزنجي، مروَّعاً وقابلاً في وقتٍ واحد:

- مَنْ أنت؟ هل تعرفني؟ أنا لا أعرفك.

- بل تعرفني حقّ المعرفة، لو نظرت جيداً في داخلك.

- مَنْ؟

- ساري. الغجري العرّاف الصيّاد. نعم أعرفك تماماً كما أنك تعرفني تماماً.

قال المخزنجي:

- الغجر لا علاقة لهم بالبحر، كأن بينهم وبينه خصومة أو على الأقل نفور نهائيّ. من أين جاء هذا الصيّاد؟ صيّاد؟ هل اشتغل بالصيْد في البحر؟

غير ممكن – صيْد الوحوش في البراري، ربما. لماذا يبدو هذا "الصـياد" على نحوٍ من الأنحاء، كأنه آتٍ من ديْرٍ قبطيٍ عتيق. كأنه راهب أسود كان قد اعتنق الدنيا، عجنها وخبزها، ذاق من عسيلتها حتى شبع وأُتخـم، ثـم هجرها بعد أن طفح من ملذاتها وآلامها جميعاً؟ صيّاد أوهامٍ ورؤى؟

لم يكد المخزنجي يثوب إلى رشده، فيما خيّل إليه، حتى تلاشـى مـن أمامه، في العربة سيئة التكيف، ذلك الطيف، ذلك الغجري الصيّاد العرّاف؟

صيّاد الأرواح؟ مثل مفيستوفيليس او إزرائيل؟ صيّاد المصائر؟ هو مع ذلك، صيّادٌ لا إفلات من شبكته، فيما يلوح، على الأقل لأوّل وهلة.

رؤى هذه الليلة لم تنته بعد.

حمامةٌ بيضاء – تماماً كما يحدث في الأغاني والأفلام – لكنهـا هنـا، حقيقية، يراها رأى العيْن، ترفرف، بسعادة، تحت سـقف عربـة السـكة الحديد، يحس حركة الهواء من رفرفة جناحيها في الضوء القليـل الـذي يسقط من مصابيح نيون مدغمشة شيئاً ما، على الأرفف الحديديـة التـي تناثرت عليها، دون انتظام، الحقائب السامسونايت والجلـد الاصـطناعي والهاندباجز المنبعجة بعُجَرها وبُجَرها.

حمامة بيضاء – فعلاً – مبسوطة الذيل على هيئـة مروحـة نصـف دائرية، تحوم فوق رأس المخزنجي، كأنما تنقل إليه رسالة. لكنـه يعـرف هذه الرسالة من قبل، ليس بحاجة إليها. يعرف أن هذه الحمامة تُحوِّم فـي يوم معين من السنة، في ساعة معينة من هذا اليوم – هل هو اليوم؟ الآن؟ – يوم الخمسين، يوم العنصرة، الإيبيفانيا ساعة نزول الروح القدس بألسنةٍ من نار؟ تحوّم حول مذبح دير الملاك ميخائيل في جبل أخمـيم، ترفـرف فوقه بسعادة. لماذا جاءته الآن فيِ هذه العربة الغائمة المغلقة على همومها الليلية المألوفة، جسيمة أو تافهة على السواء؟ هل هناك قَطّ هموم تافهة في

نهاية الأمر؟ كيف جاءت؟ هل جاءته هو بالذات، قصدته واتجهت إليه ترفرف فوق رأسه؟ إليه هو وحده جاءت؟ كأنما هي عزاء، إشارة، تشديد للقلب، في غمار هذه المحنة التي يعرف أوائلها ولا يعرف مصيره فيها، هل هو - في محنته - يفرّ من خطرٍ ماثلٍ أم يواجه أخطاراً؟ هل هو يهربِ، صحيح؟ أم أنّ مدير المخزن، ببساطة، طلب منه - يعني كلّفه أو أمره بصنعة لطافة - أن يقوم بمهمةٍ محددة؟ هل يعرف - هو - في صميمه أنه ما من طريق للفرار. لا من القمع ولا من الحقد ولا من الحب، حتّى. هل هذه هي الرسالة التي تأتيه الحمامة البيضاء بها في غسق هذه العربة الليلية؟ هل هذه رؤيا؟

من قبيل الردّ على تساؤله - الذي لا ينتهي - جاءته ضحكة جشّاء مبحوحة.

القزم الشائه المكلبظ - عبيط الله - "بيث" إله المرح والعبط، منبعج البطن والذراعين والساقين، ممتليء حتى الكظة من كل ناحية، لسانه المتدلّي، أنفه الأفطس، عيناه البراقتان الجاحظتان في رأسه الكبير المتضخم الذي لا يتناسب - أبداً - مع الجسم القميء المدكوك، يصيح به، بلسان عربيّ فصيح:

- ألا تتوقف أوهامك أيها العم المخزنجي، وسبحات خيالك؟ ألا تنزل يا أخي إلى الأرض، معنا، مثل كل الناس، يعني على رأسك ريشة؟ رؤاك نسيج عنكبوت، معاشقك نزوات عابرة لا تؤوب إلى مآل، تتطاير مِزَقاً، سحاب صيف أبيض ناعم الحواشي، مهلهل. ميتافيزيقاك خفيفة الوزن هفهافة القوام ليست فيها صلابةُ ما تزعمه لنفسك من نشدانٍ فلسفيّ. أيها العمّ المخزنجي، إصحَ..! يا أخي يلعن أباخاش الفلسفة، طظٌ، ستين طظ في "الحب" المرفوع على نُصُب عالٍ فوق هامات البشر الفانين من أمثالنا...

ضحكته الجشّاء المبحوحة.

البشر العاديين من أمثالكم؟

- أيْ نعم.. لا يهمّك كيف أبدو. لا يهّمك مظهري. أنا - مثلك - مثل كل الناس.. ندبّ على الأرض، نبحث عن أكل عيشنا حرفياً أو مجازاً، الخبز أو الفلوس أو السلطة والأبهة، كلها أكل عيش، أما الشعر، والتفلسف، ورؤى أهل الخَطْوة وأرباب الحُظوة، فهي كلها لا تساوي ملّيمين في سوق الدنيا الصلبة الحقيقية إصحَ بقى - إصحَ.

ومثل كل رؤى هذه الليلة، في عربة القطار، الدرجة الثانية، سيئة التكييف، تلاشى القزم الفصيح الحكيم - حكمة الكلبيين - كأنْ لم يوجد قَطّ.

قال المخزنجي:

- سوف يقول عبده وازن: "ليست إلا تنويعاً آخر، لا جديد فيه، على "رامة والتنين". سوف يقول صلاح فضل: "ما زال ينمي أسطورته الشخصية التي لا يعرف غيرها". سوف يقول فيصل دراج: "صوتٌ واحد، ليس فيها تعددية، ليست رواية، قال باختين.. .. (كرمّ الله وجهه) إلى آخره

وسوف يقول المخزنجي:

- من قال إنها "رواية" على أية حال؟ زيّ بعضه. ليس في حكايتي نظام وتسلسل وإحكام وحسن صنعة وتوضيب. كيفما جاء الحكْي فليجئ. هل أنا الذي سوف أسوق السرد على نسقٍ مسبق متناسب مضبوط؟ أنظِّم كوْن الروايات، بينما الكون كله، في كل فوضاه وعشوائيته وجوره ولا إنسانيته، هناك، قائم، لا يمكن إنكاره ولا الفرار منه - طوْعاً على الاقل!
- مع الزعم بأن له وفيه قوانين صارمة الدقة، قوانين هي من صنعنا نحن لا من صُلبه.

دخلت عليه الغجرية، قالت له وهو جالس إلى مائدته في المخزن:

– أنت الذي تصنعنا. أنت وحدك تسيّرنا في مسارات لا يَدَ لنا فيها، أنت فقط ترسم مصائرنا، نحن صنيعة يديك. فماذا تنوي أن تفعل بنا؟

قال المخزنجي:

– بل أنتِ يا مانورة التي تصنعينني، أنتم كلكم تصنعونني. لولاكم ما كنت شيئاً مذكوراً. إذا كنت شيئاً مذكوراً على أي حال..

قالت الغجرية:

– أما كفاك فصولٌ سبعةٌ تراوِح بيننا وبينك، أياً كان نظامها أو تلقائيتها – ياه...! هل أنا الذي أقول هذه الكلمة – تلقائيتها – أم أنت الذي تضعها في فمي؟ أنت الذي تدير حوارات لا نعرف فيم تدور، تصطنع أحداثاً – نعم اسمح لي – "تصطنع" أحداثاً لا ندري – نحن – لماذا تُجريها علينا. أما يكفيك هذا يا سيدي؟ كفاية.. أنت لا تعرفنا، لا تعرف شيئاً حقيقياً عنّا. هل التقينا حقاً؟ هل حقاً أقمنا مضاربنا على يسار مخزنك هذا الذي أقمت جدرانه من محض وهمك ومن هلاهيل ذكرياتٍ غائمة بائدة عن المخزن رقم ٦ في كفر عشري؟

قال المخزنجي: أما آن للقلب المسهَّد أن يستريح.

نعم عرفتكم. التقيت بكم، قريبين جداً. وبيني وبينكم – مع ذلك – حاجزٌ لا يُرى ولا يُخترق. جئتم – هل كان ذلك سنة ١٩٤٢؟ ياه.. يا للزمن..! ومع ذلك فكأنه كان بالأمس فقط، دخلت جماعتكم إلى الطرّانة قرية جدتّي، غرب النيل، شرق الصحراء، أقمتم في الهواء الطلْق تحت شجرة النبق الضخمة الوارفة في الساحة المتربة أمام بيت جَدتي أماليا – هيلانة، وجدّي سلوانس – ساويرس. اشعلتم موقدة الحدادين، التنور الذي تتقد نيرانه بالمنفاخ ثم تهدأ ثم تتقد من جديد. الحمار ربطتموه بجذع شجرة النبق.

سرعان ما جاء الفلاحون - يعني المستورين منهم طبعاً - بالحلل والمواعين النحاس. رأيت ولداً منكم - هل كان هو وضّاح؟ - يدعك البياض على حوافها وأرضيّاتها بالرقص والدوران فيها، جرى معظم الفلاحين - كلهم - يخبئون دجاجهم وبطهم ووزّهم في أكنانها، اتقاء للطعم المرشوق في ابرة على طرف الخيط الذي تجروّنها به بطريقتكم المعروفة. لم تتعرضوا لأحد ولا لشيء، كنتم طول اليومين عندنا على آخر الأدب والذوق، نعم عرفتكم، عندما قطعت الصحراء في ليلة صيفية مقمرة - ساطعة القمر - مع عمّ فرح العرباوي، من موقع الخيمة التي كنت أشتغل فيها، وأنا بعد صبيٌ في الخامسة عشره ربما أو أقل أو أكثر قليلاً، مع خالي ناثان في عملية رصف وسفلتة الطريق الصحراوي - كان اسمه طريق المعاهدة - إلى وادي النطرون، نمتُ من التعب على فَرْشةٍ خشنة: كليم وفوقه بطانية صوف، لكي أستيقظ على صيحة الفرح - كنت أنت التي ترقصين، في البدلة السوداء الشفافة الهفهافة على جسمك الأسمر المدور المكشوف المستور، الحزام الأحمر العريض يلف الردفين المكتنزين، يدور تحت استدارة البطن الحريري المكشوف فيخفي منه ويكشف، يؤكد غموضه ودعوته، يبرز نعومة وامتلاء الربوة المخروطية الدسمة تحت البطن، ايقاع الطبل بدائيّ خام يتراسل مع إيقاع نبض الدم في شرايين فتيّة محتشدة وقوية النهوض، حفيف الصاجات في أصابعك التي تعزف نغماتها الخلفية وراء الجسد المتلوي بانسياب موسيقاه الخاصة، الترتر الأصفر في بدلة الرقص يخشخش بخفوت مع اهتزاز العقد الذهبي - القشرة بلا شك - حول الجيد الناصع الذي لوحته شموس الشهوات وصحراوات النشوة الشاسعة، والخلخال الفضي العريض حول الكاحلين الدقيقين القويين، المزمار والطبل وحتى دخان المعسل وهَبْو الحشيش تحشد دمي - كلها - بضربات نبض اليأس المبكر والشبق المبكر في عزّ الليل

المتوهج بفحيح الكلوبْ الغازيّ قاسي الضوء. نعم عرفتك مـــانورة عـــين الليل ريم قمر القلوب لواحظ الغازية الرقاصة أبدية الصبا أبدية الصـــبوات – أعرفك أيضاً تحت اسم سخمت. جسد امرأة وديعة رابضة على الأرض ورأس لبوَة شرسة متقدة العينين أوْكَلَ اليكِ رع مهمة إفناء البشـــر عنـــدما ازدادوا فساداً وفسوقاً، أغرقتِ البلاد في فيضان شهواتك أعملتِ فـــيهم – بالحب – الفتْك والتقتيل

أعرفك عندما كنت تحملين رضيعك في الليالي القمرية ساطعة الضياء، تجولين في الممرات الترابية الضيقة في الدلتا والصعيد، لا تكاد تسعك أنتِ ورضيعك العاري تحملينه على ذراعيك – تحملين معه ثقل العالم – بـــين غيطان الأذرة مرتفعة الأعواد المورقة المتربة.

أعرفك تحت اسم حتحور البقرة المقدسة خصـــيبة الضـــروع وجهـــك الإنساني المدوّر تحت قرنيْن صغيرين على جبهتك تفترّين عـــن ابتســـامة مكنونة لا تكاد ترى – ابتسامة الشبع من النشوة – تخرجين مـــن صـــرح إدفو – كل ليلة – تنزلين إلينا، صوت خوارك الخفيض يبعث الأمان فـــي قلوبنا أن كل شئ تمام، هل أنت أيضاً تحرسين كنزاً خبيئاً لا نعرف موقعه من أرض مصر؟

أعرفك؟

نعم أعرفك وأنت صبية تقريباً غريرة يقِظة العينـــين، بنظـــرةٍ حَـــذِرة ومتطلعة وحريصة على ما هو غير محدد وغير واضح، فستانك الملّـــون خفيف النسيج مفتوح حتى أعلى الكتفين ينمّ عن ذراعين بضّتين رقيقتـــين فيهما نعومة الصبا أو ما يكاد يقترب من الطفولة البناتية – أنتِ بنت بنوت بكر وعذراء جداً، بريئة وماكرة مكراً شديد السذاجة فـــي الوقـــت نفســـه، صففت شعرك بعناية ووضعتِ قرطك الصغير تحت أذنيـــك المكســـوتين

بانسدال الشَعْر المتماسك ناعم النسيج، وأمامك حقيبتك البيضاء تضم أسرارك الصغيرة.

نعم، أعرفك أيضاً واسمك رامة التي لا يمكن أن تفي بوصفها كلمات مهما كانت، الوطن الأرض لكنها المرأة أيضاً، الحقيقة الإلاهة لكنها المرأة أوّلاً وأساساً بكل تدويرات جسدها الوفير، بنهديها الجميليْن الوثيريْن وبطنها الأسيل وربوة فينوس المحتشدة بكل لذات الوجود وما وراء الوجود، بعينيها الوسيعتين الخضراوين السوداوين المتقلبتين بألوان الطيف الثابتتين على رؤية لا تحيط الرؤية بها.

قال المخزنجي:

- عن ابن عربي أن الله عز وجل عندما خلق المرأة من الرجل فانه لم يترك مكانها منه فارغاً، وإنما وضع فيه الشهوة إليها، فقد سبق في علمه إيجاد التوالد والتناسل في الدنيا. فكان النكاح أعظم الوصل بين الأصل وفرعه وهو "نظير التوجه الإلهي على من خَلَقه على صورته فيرى فيه نفسه فسوّاه وعدله ونفخ فيه من روحه"، فالرجل يتوجه فيه لإيجاد ولدٍ على صورته يخلفه من بعده كتوجه الله في خلق آدم ونفخه فيه من روحه بعد أن خلق عناصره من الطبيعة ليكون صورته ويرى فيه مجلى له"

فالمرأة بالنسبة إلى الرجل "كالطبيعة للحق التي فتح فيها صور العالم بالتوجه الإرادي والأمر الإلهي الذي هو نكاح في عالم الصور العنصرية، وهمة في عالم الأرواح النورية، وترتيب مقدمات في المعاني للإنتاج فلا قيمة للطبيعة من غير الأمر الإلهي وشاء الحق أن يكون أمره نافذاً من خلال الطبيعة، وكذلك المرأة بالنسبة إلى الرجل يكمل كل منهما الآخر في تحقيق الإنسانية الكامنة فيهما معاً بالقوة في أصل النشأة.

فالنكاح هو اتحاد عنصرين لإنتاج ثالث في عالم العناصر، وهو في عالم الأرواح التوجه الإلهي نحو الطبيعة وفتح صور العالم فيها بالأمر، وهو في عالم المعاني توليد النتائج من المقدمات. فالمرأة بذلك هي محل وجود أعيان الأبناء كما أن الطبيعة للأمر الإلهي محل ظهور أعيان الموجودات، فأمر بلا طبيعة لا يكون، وطبيعة بلا أمر لا تكون ورجل بلا امرأة لا يكون، وامرأة بلا رجل لا تكون في مستوى أصل الخلق.

قال المخزنجي:

- لماذا إذ الحب يبدو - عندي - كأنه علويّ، نورانيّ، سامٍ إلى آخره؟.

هل ثم عيب - حقيقة - في فيزيقيّة الحب، وجسدانيته الخام الصراح؟

ما دام النكاح في رؤية ابن عربي وربما في رؤيتي - هو عنصر من عناصر الطبيعة نفسها وهو في الوقت نفسه أمرٌ إلهي؟ أمرٌ - بكل المعاني، أمرٌ هو فرْضٌ وإملاء، وأمر هو مجرد شئ مجرد وجود مجرد حقيقة. هل أخجل (يا للكلمة الطهرانية، أم أقول الصبيانية؟ أم أنها - يعني - أخلاقية؟) هل أخجل من الجانب "الحيواني" الذي لا شك فيه للحب! أليست كل "عملياتنا" الحيوية حيوانية تماماً، مهما غلفناها بالطقوس وترقيق الحواشي وترهيف الخشونة المباشرة، والمداراة والمراوغة، أخذ النفَس بالشهيق وطرده بالزفير (حتى إن لم يكن موضع وَعْي) ثم الأكل، المضغ، النهش، ثم الإخراج. الإفراز، التخلص من الفضلات بالدفع أو الحزق أو الانزلاق، تدفق الماء الزائد برشاش البول المنطلق أو تفصّد العرق على الجلد، ثم كل عملية الجنس: المهارشة والإيلاج والقذف والانسحاب، كلها، كلها حيوانية. أليس كذلك؟ ما المشكلة في أنها حيوانية؟ البراءة المطلقة - إذا جاءت - والتلقائية الكاملة والعفوية التي تكاد تكون لا إرادية، أليست -

في النهاية – حيوانية؟ أليست تلك خصائص الأفعال الحيوانية؟ فيم التعالي البشريّ السخيف الذي لا معنى له عن "الحيوانية"؟ كأن الكلمة شتيمة بدلاً من ان تكون سمة الحيوية وخصصية الخصوبة المباشرة الأولية والأساس المكين لكل عقلانية وكل تسامٍ محلق في الأعالي.

إشباع الشهوة والرضا بتحققها دون مساءلة هو أيضاً أمر حيوانيّ بريء، لكنه عندي – قال المخزنجي – تهوين من جمال شهوتي الذي لا ينتهي، جمال لاهوتيّ خاص، شهوة قائمة بذاتها، خارج نطاق الحسية، خارج نطاق الحيوانية، ليست نفعية، لا تدخل في حساب المصالح، ليست مسألة جَبْر خوارزميّ ولا تمرين هندسيّ ليس فيها نجاح أو فشل، ليس فيها كفاءة أو قصور – بل لي الحق في التعثر والخجل والتردد والانعطاف لأن لي الحق في الصدق، في ازدراء التكنيك والصنعة والصياغة.

قال المخزنجي: هراء، تسويغات لا قيمة لها.

انحنى ساري الصيّاد على المخزنجي، قبّله على جبهته، ملمس الشفتين الجافتين، تضغطان على عظْم رأسه، في اللحظة نفسها التي يختفي فيها، يتلاشى، في عربة القطار سيئة التكييف التي تنطلق في أرض الصعيد، كأنه لم يوجد قط. كأنه؟ هل مر حقاً؟ كان موجوداً؟ هذا الصياد الغجري الذي وجوده نفسه تناقضٌ منطقيّ؟

ما دمت قد رأيته بالفعل، رأيته، ما دمت كلّمته، وكلّمني، بوضوح. طالما كان قد قبلني على جبيني، ما زلت أحس أثر الشفتين اللتين لا ماء فيهما ولا دماء على وجهي ورأسي. ما دام ذلك قد حدث – ألم يحدث؟ – فهو إذن صحيح.. صحيح.

ألا تنتهي هذه المطاردة بيني وبين الرؤى؟

ألا تنتهي بيني وبين من يتعقبونني، للثأر أو لمجرد القَمْع؟

عندما كن قطار السويس يشق طريقه في الصحراء الشرقية يذهب بالمخزنجي وزملائه إلى باخرة قديمة متهالكة سوف تحمله إلى منفى آخر، غير منافيه الداخلية المعتادة، في تلك الظهيرة الساخنة في داخل عربة القطار المقفلة التي تتوهج بحرّ الصهد وحرّ السؤال غير القابل للإجابة اختلس المخزنجي نظرةً من شيش القطار المسدل من وراء زجاج النافذة المحكم، هل خيل إليه - مرة أخرى لا نهاية لتخاييله - أم أنه رأى - ومرة أخرى لا نهاية لرؤاه - أنّ ثم ما يشبه كنيسة مهجورة خاوية، ماثلة، كذملة البناء، برج الجرس سامق والقبة المدوّرة عليها رمز الموت والخلاص قد انتصب في عراء السماء، موحشاً، لا... إنه لا يجد إجابة هو أيضاً، ليست أطلالاً ولا مجرد أنقاض، بل مكتملة، نهائية، لكنها في قلب الفراغ الشاسع، خاوية لا يؤمّها أحد، لن يأتيها راعٍ ولا رعية، بعيدة تماماً عن العالم وثقل العالم، أبنية كفت عن النداء وعن انتظار تلبية النداء، ظهرت - من فجوات شيش الشباك المغلق في عربة القطار المندفعة في طريقها - ثم اختفت

يقع نظره الآن، عندئذ، في طريق المعاهدة، على نَصُب الأسرى الأتراك في الحرب العالمية الأولى - ياه.. الأولى! بعد كل هذه السنين.. - مهجورٌ في صحراء النسيان، قائم وحده.

من يذكره؟ من يهتمّ به؟ الأسرَى الأتراك؟ من هم؟ ماذا كان من مصيرهم؟ لماذا هذا النصُب القائم وحده يخلّد ذكرى لا أحد يحتاج لتخليدها؟

أهذا قريب من نصْب القَتلَى الإسرائيليين في سيناء؟ فيم جاءوا؟ وفيم قتلوا؟ ولماذا يقام لهم نصْب تذكاريّ في أرضٍ اغتصبوها ومازالوا يحلمون باغتصابها؟ نُصُب للسقوط والعدوان؟

الأصفر الصحراوي القاحل هو – عندئذ – لون الحلم

أما الآن، في هذه الليلة، فهو الأزرق العميق الضارب إلى دُكنة السواد، تقطعه نقَط حمراء صغيرة مشتعلة، ذلك الآن لون حلمه.

لم يكن ما رآه الآن من قبيل الرؤى – الأوهام، بل هو واقع لا شك في واقعيّته.

كان نور عربات القطار، بالتناوب، نور خاطف ثم عتمة معشية ثم نور على التعاقب، يسقط على خيام عسكرية بيضاء تقريباً نظيفة مسوّاة بل أنيقة، والى جانبها عربات النقل الفورد المقفلة والدبابات التي تبدو صغيرة، صفراء كابية مشرعة المدفع الواحد النحيل الذي يوحي، مع نحوله، بتهديد قاتل.

وإلى جانبها تتوالى أشرعة بيضاء، تخفق بها الريح، على صهوات سفن جامحة منطلقة على رسلها، تجتاح رمال الصحراء تخوض غمرات مياه ساكنة ساجية رقراقة الكثبان.

الفصل الثامن

كان المخزنجي قد خرج لتّوه من محنة غريبة.

في خيمة السيرك الكبيرة على النيل كان المهرج قد قفز من الساحة إلى الصف الأول وجاء إلى المخزنجي، من بين المتفرجين، وسدد إليه نصف ضربة على جانب وجهه على سبيل التضحيك، ونصف ضربة - كأنها بجدّ - على وجهه من الناحية الأخرى، وهو يتواثب حوله ويشوِّر، يلوّح بذراعين ويطوّح بساقين خرعتين سائبتين كأن ليس فيهما عظام ولا عضل، لم تكن الضربات موجعه حقاً لكنها كانت محرجة - بل مهينة - إذ جعلته مثاراً للتهزيء والسخرية - حتى بعد أن انحنى له المهرج بتحية اعتذار وهو يبتسم ابتسامة حقيقية تحت ابتسامته الثانية المرسومة على وجهه الملطَّخ، ثم يقبله على جبينه، وإذا بجمهور السيرك ينفجر بالتصفيق الحادّ المدوّي إعجاباً وتحبيذاً، والمخزنجي ينخرط - هو أيضاً - في موجة الحماسة الجماعية يصفق مع المصفقين يحس نفسه ساخناً منفعلاً وعلى وجهه ابتسامة كأنه قد نسيها هناك، من الحرج، ومن أنه يُظهِر للملأ أنه يفهم ويقدّر الدور الذي وجد نفسه فيه، موضعاً للتهريج، ويقدر معنى "المرح" ومعنى أن يتقبل ذلك كله بما يسمى الروح الرياضية إلى آخره إلى آخره، حتى لو كان في صميم نفسه ساخطاً ثائراً غاضباً من نفسه ومن ذلك الذي اقتحم عليه نفسه، ومن الناس الذين شاركوا في عملية الاقتحام -

بل عملية الاغتصاب والانتهاك هذه. وإذ يدخل ساحة السيرك صفٌ من أعيان الناس وكُبَرائهم - لم يعرفهم بالتحديد لكنه كان يدرك على الفور أنهم من "علية القوم" هل هم وزراء الثقافة والإعلام ورؤساء هيئات المسرح والسينما وقصور الثقافة؟ هل هم من كبار المحاميين أمام محاكم الاستئناف والنقض والإدارية العليا ومجلس الدولة؟ ما الذي أتى بهم - هؤلاء - الآن؟ وهم يصفقون مع الجمهور ويبتسمون للمخزنجي ابتسامة فيها نوع من التعالي العطوف، أو التنازل الكريم، أو - حتى - التواطؤ السمْح الجميل؟ ومع قسس الكنيسة والشمامسة المرنمين، كلهم يلوحون بأيديهم، ويترنمون، لكنه لا يسمع بم يهتفون، أو يتغنّون، وإن كان يحس أنه لا يحب ما يقولون.

المخزنجي فجأة في بيت - پاجودا قائم على أعمدة خشبية مغروزة في ماء رقراق وشاسع الامتداد، البيت پاجودا على طراز بيوت "الهند الصينية" - سأل نفسه: هل هناك الآن ما يسمى الهند الصينية؟ ڤيتنام أو لاوس أو الملايو أو بحر الصين الطامي نفسه؟ البيت الخشبي ترتفع فيه تلك المنارة المخروطية - هل هو معبد بوذيّ صغير؟ لا، هو بيت الفيلسوف.. لا يهم لا يذكر الآن - ولا يهمه أن يذكر - اسم الفيلسوف. هذا ملاذه ومأواه ومرجعه من دون العالمين، جدران من الحصير المجدول، يتسلل النور وهدوء خارق غير دنيوي من بين جدائل الحصير، وفي الساحة المرصوفة بحجارة رخامية كبيرة. أمام البيت هؤلاء الراهبات البوذيات - نعم راهبات بوذيات..! - في عباءاتهن الصفراء، راكعات، مبتهلات، مستغرقات في نشوة عبادة صامتة - تكاد أن تكون بلهاء من فرط الغيبوبة التي ترين عليهن.

المخزنجي إذ يهمّ بالخروج الهين تمنعه إحدى الراهبات بحركة حاسمة قاطعة من ذراعها البضة التي تنحسر عنها عباءتها الحريرية الهفهافة التي

يضرب لونها الاقحوانيّ فاقع الصفرة الى صهبة برتقالية متموجة، تمنعــه لأنه حزين، لأن الحزانى والموجوعين لا يخرجون الى الملكوت، الراهبات الثلاث متلففات بهذا الغطاء الأقحوانيّ الواحد، هنّ كــائن واحــد متعــدد الأذرع متعدد السيقان متعدد الجسوم لكنه واحد، يتهجد في تشنُّج محكــوم، له وجه واحد شاحب متألم عظميّ مربّع الخطوط، إذ تقول له: لا تخرج.. لأنك حزين، تستحيل للفور إلى طفل صغير القدّ، له نفس الوجه الشــاحب العظميّ المتألم، الناضج، المتقبّض بالوعْي، يصغر هــذا الطفــل، يــزداد صغراً وضآلة دون أن تتغير قسمات الوجه الناضجة بل التي توشك علــى العطب من النضج، حتى يصبح وديعاً كالأسى، هادئاً غامضــاً كالكآبــة، ضئيلاً ولطيفاً كأنه كلمة في قصيدة.

يسير المخزنجي كأنما يريد أن يفرّ - هل هو دائماً في حالة فــرار؟ - فإذا هي مانورة هي نفسها عروس القصر ساطعة جميلة بــاهرة الجمــال، ناعمة، فخمة. آفا جاردنر بخمس سيقان وخصــرين وصــدرين، بأربعــة نهود، ولكنها بوجه واحد، حزين، وبديع القسمات، كأنه وجه يريد أن يقول شيئاً رائعاً أو مروّعاً، بهيجاً أو مهيباً، هادئاً ولكنه ضارب الحدة. يرتمــي المخزنجي عليها، يحس تحته البطنين الراسخين والرحمين الوافرين، يضم إليه خصريها بمتعة خارقة لم يعرف مثلها من قبل، باعتبارها اثنتين، اثنتيْن مثيرتْين فاتنتين مغويتين وإذ يمد يده بين خصريها تنفصل ريم عن مانورة تتدحرج إلى الأرض، وتأخذ في الانكماش، تهبّ مانورة الغجرية المتوحشة متحررة تبسط ذراعيها وتضرب الهواء بساقيها، منفصلة، مستقلة، كانــت تنتظر انفكاك السحر، ثم تنحني وتلتقط الأخرى الراقدة الآخذة في التضاؤل والانكماش، كأنما تلحق بها قبل أن تتلاشى، ترفعها عالياً، ثم تخــبط بهــا الأرض ضرباً عنيفاً قاسياً حيوانياً لا رحمة فيه فيصدر عنها صوت قطعة من المطاط تخبط بالأرض وهي آخذة في التضاؤل في الانكماش والصغر.

يستدير المخزنجي وبه شهوة عارمة فاذا مانورة، قد أصبحت شيئاً كالجثّة، فاغرة الفم الأجوف، عيناها عفنتان كالبثور، كبيضة مقشورة مسلوقة فاسدة، متغضنة القوام، يفلت المخزنجي خارجاً مروعاً.

شارع ينسكب عليه ضوء القمر الأزرق، شارع في اسكندرية الأربعينيات بعد غارة منتصف الليل من الطائرات الألمانية دكتّ البياصة وتركتها خراباً. الأنقاض وركام الهدم تلال صغيرة هادئة من الأحجار في ضوء القمر الأزرق.

سحب الدخان تتصاعد من قبة البرلمان، ومن قبة الجامعة، ومن القبة السماوية في البيبليوتيكا الكسندرينا ومن القمة المملوكية الباذخة في المقابر المتناثرة التي يعيش فيها الناس حياتهم العادية المألوفة يأكلون ويضاجعون وينسلون ويفرزون فضلاتهم وسط الموتى، بين الشواهد الرخامية والحجرية القائمة والساقطة والماثلة والمنسية على السواء.

الأزرق الداكن الضارب إلى السواد لون حلم العالم، كالمعتاد.

أخيراً وصل القطار.

كان قد توقف قبل المحطة، انحرف إلى تفريعة جانبية، ترك الطريق مفتوحاً، في هذه الهدأة من الليل التي لا تفسير لرَهَبُوتها، اندفع قطار آخر – بكلّ قوته و قعقعته وجموحه يصفِّر ويزمجر يدقدق ويجلجل ويصطفق في الطريق المفتوح له على القضبان الرئيسية.

قبيل انبلاج أول ضوء وصل القطار.

دخل المحطة الخاوية المضيئة بنور ساطع.

الأعمدة الفرعونية الزائفه، صفير القاطرة يتردد أصداؤه كأنها تدخل ساحة خاوية فسيحة. على الرصيف صف من عساكر الأمن، يتساندون

على بعضهم بعضاً، وقوفاً شبه نائمين، في أيديهم دروع خشبية لا ضرورة لها، وبنادق منكسة فوهاتها إلى الأرض.

قال المخزنجي: ماذا يحدث: لا يمكن أن يكونوا بانتظاري؟ هذا الصف كله من العساكر بانتظاري أنا؟ غير معقول؟

كان دمه ينبض بشدة.

ثم ضحك – في سرّه – من نفسه.

نزل من عربة النوم – الدرجة الأولى – ضابط كبير فيما يبدو، معه كوكبة من رجال الشرطة.

نزلت من عربة الدرجة الثانية. القزم الإلهي بيث، وانفلتتْ من نافذتها الحمامة البيضاء.

نزلت من عربة الترسو قافلة الغجر كلها وكليلها: وضاح الحداد، ثم ساري الصيّاد، ثم مانورة – وياللغرابة التي لا تُصدّق – في يدها ريم الصغيرة وأخواتها الصغيرات اعتماد وعالية وعايدة وأخوتها علوان وعصام وعبد الرحيم، وأم رضوان المبروكة، لواحظ الرقاصة ومحاسن المطيباتية وقدّار وعوّاد، ومعهم وبين أرجلهم القطة مورة والكلبة صانوه، ذهبوا على الفور إلى عربة السبنسة المغلقة، وعندما انفتح الباب نزل الحمار منقاداً وطيّعاً طيباً وديعاً، وتبعه القرد في القفص الحديدي المشبّك يتواثب ويزوم ويصأى ويزقزق فرِحاً برؤية من يراهم أهله وعشيرته.

عجب المخزنجي قليلاً إذ رآهم يُنزِلون من عربة البضاعة، بسرعة، خياماً مطويّة ضخمة بقماشها الخشن وأوتادها الخشبية، هل هم رُحّلٌ في البوادي حتى لو استقلّوا قطارات السكة الحديد؟

وقف المخزنجي على رصيف المحطة وقد أخذ يخلو من ركاب القطار النازلين. وجد نفسه، فجأة، وحيداً في المحطة الخاوية تماماً، مضيئة بأنوار كهربية كأنها لا جدوى ولا ضرورة لها.

ماذا أتى بهؤلاء الغجر هنا؟ أهي مجرد مصادفة؟ أم مؤامرة؟

مؤامرة؟

ياعيني..

على إيه يا حسرة..!

هو هنا لمجرد أن الحاج متوليّ أسند إليه مهمة محدودة هي المساعدة في مزاد البضائع الرَجْوع، في المخزن ٢٨، غداً الجمعة.

استقلّ المخزنجي سيارة الأجرة الواحدة القديمة من أمام المحطة، قال للسائق بلهجة الواثق العارف:

– المخزن ٢٨، عَ الكورنيش.

دُهش المخزنجي قليلاً، عندما دخل الدور الأرضيّ الفسيح في المخزن ٢٨. لم يكن يتوقع أن يكون المزاد هاماً إلى درجة أن يحضره الولد چو الجريجي الوسيم الخرِع. تعجب المخزنجي أنه، تنفيذاً لتعليمات لابدّ أنها كانت صارمة، قد قبل أن يترك الإسكندرية – عُمْرهُ ما عملها! – وكاباريهات المونسنيور والسكارابيه والدوفيل وورمانس والكوت دازور وغيرها، لكي يحضر المزاد، هنا، في حرّ الصعيد وجفائه وخشونته، كان شكله غير مألوف في هذا الإطار هنا: هو المرح المدملج ثنائي الجنوسة الذي طالما تقلّب هواه بين شراميط الكورنيش الواحدة برُبْع جِنيٍ، والشراميط الراقيات الكْلاس الأرمنيّات والطلاينة والجريجيَات والشاميّات، وبين هواه بالرجّاله الجدعان أولاد البلد – الذين لهم في هذا الكارْ – في العطارين والفراهدة والسيّالة، يقتحمونه – لابّد – ويسوّونه بالأرض في عنف الاختراق الخلفيّ الذي – كما قال للمخزنجي في ساعة صفاء وفضفضة – ربما هي ساعة غواية لم تأتِ إلى نتيجة – كان يرغمه إرغاماً على أنين اللذة وتوجعات النشوة المسحوقة.

كان هنا أيضاً - يا للغرابة صحيح! - عبد الفتاح حسين طالب الحقوق الذي يشارك يوسف في عمله مساعداً لمدير المخزن، كأنّ المخزنجي يراه لأول مرة في هذا النور الآخر: أسمر كما هو لم يتغيّر، لكن عينيه، فيما يبدو، قد ضاقتا أكثر، وحتى هنا فإن طربوشه لا ينزل عن رأسه الجعد الخشن، كان في جلسته على جنب صموتاً هادئاً، كأنه لا يريد أن يتورّط في شيء، بينما هو متورّط حتى العنق..

لم يكن يوسف بحاجة إلى كبير خبرة لكي يدرك على الفور أن هذا المزاد عملية كبيرة لها أهميتها عند الشركة التي أوفدت كلّ هؤلاء من موظفيها للمشاركة وتشهيل الأمور.

كان رامي افندي شنَنَ قد آخذ بمقاليد المزاد، مع الدلاّل ج.هـ.ديلامار، والموكلين المفوّضين الخواجة توبليس والخواجة هاردنج، ومساعديهم الذين لا اسم ولا صفة لهم

التجار والمزايدون من كل الأصناف، بما فيهم فضوليون ومتسكعّون يريدون تزجية الوقت، بجلابيبهم وزعابيطهم الصوف وتلافيحهم وعممهم، قد انتحوا الجانب الأيمن الفسيح من ساحة المخزن، وإلى اليسار ارتفعت لوتّات البضاعة في الكراتين والحاويات والصناديق التي أزيحت عنها أغطيتها وانفتحت للأنظار والأيادي، للفحص والتقليب تحت رقابة الدلاّل وعينيْ شنَنَ النافذتيْن.

الاّ أونو.

ألاّ ديو.

ألا تريو.

sold للخواجا هناك عندي هنا لوتّ جزَم جلد أسود ٣٠١ جوز و٢٣ فردة، وشرابات قطن أبيض طويلة ٢٦٤٣ جوز بالتمام والكمال ألا أونا..

لوتَ بلاطي صوف ٨٣٦ بالطو وبنطلونات شورت للطقس الحــار ١١٧٤ شورت مين يزايد من يقول؟ ألا أونا.. sold للمعلم أبو سنّة. لوت نمرة ٣ فانلات قطن صافي ثلاث ألاف مين يقول؟ sold لعطية بيه دسوقي. لوتَ نمرة ٥ لباسات حريمي حرير اصطناعي ٨٣٢ بالعدد وحمــالات للثــدي سوتيانات يعني ١٤٨٠ بالعدد مين يشتري؟ من يقول؟ سولد للمسيو أنجيلو دامتاس لوتَ نمرة ٦ عوينات لوقاية النظر من الأتربة وخلافة مشكّلة ١٧٧ بالعدد مين يقول؟ صولد للمسيو ليفي سيداك، عندي هنــا لــوت نمــرة ٧ جونلات سيرج كحلي وجوانتيات جلد بقري أصلي وعندي لوتَ مطــاوي وصداري وقمصان بأسورة مجوز طرية ٩٠٧ قميص قطن وصوف كحلي وشمواه وخيط كله على بعضه ١٤٨٣ جوز ٢ و ١٥٣ B، مين يشــتري؟ مين يقول؟ لوتَ نمرة ٨ شفرات للحلاقة ٥٠٠ بالعدد مع صابون للأســنان وفوارغ B ٢٨٦٠٧ علبة، مين يقول؟ ألاَ أونا... قمصان بأكمام قصــيرة ٧٧١ بنطلونات سيرْج أزرق ١٧١ فُرَش شــعْر حريمــي ٦٦٧ بلــوزات حريمي B ٨١٠ شنط حريمي ٥٠ لوت نمرة ٩ قماش دِريلْ أبــيض ٣٣ بوصة ٣٩ ياردة عندك و ٤٠ شرْز أزرق B ٢٠٠ مين يقول؟ ألاَ أونا.. فُوَط حمّام بشكير محلّة ٥٠٠ بالعدد ملايات سرير قطن مشجّر مع غُطيان مخدات ٢٥٧٥ وعندي لوتّ نمرة ١٠ إبر خياطة مقاسات متنوعة ١٠٥٠ إبرة ألاَ أونا... مين يقول؟

يدور المزاد دورته المرسومة، يكتب المخزنجي في دفتــره الصــغير اللوتّات والكميّات المباعة والأثمان التي استقر عليها المزاد، بالدقة والتحديد و إنْ بخطٍّ سريع مشفّر لا يفك شفرته أحد إلا صاحبها، تمهيــداً لأن ينقــل ذلك في دفتر المخزن الكبير.

رامي افندي شنن يرقبه، بأنفه الحاد ووجهه المخروطيّ الضارب إلــى بياضٍ شاهق – يبدو غريباً في حرّ الصعيد.

سقطت ورقة نبات الظل الصفراء البوتاس، وقد ذبلت وجفّت، على أرض المخزن.

قال رامي افندي شنن للمخزنجي: تعال يا يوسف كفاية كده شغل النهاردة. إنت معزوم على فرح عديلة – بنت أختي – الساعة ٨. إوعَ ما تجيش. حابعتلك حنطور يوصلك..

لم يكن ثم مجال للدهشة عندما وجد المخزنجي أن مانورة عند عديلة.

كانت الغجرية تزيّن العروس.

حفّت لها زغب الشعر الخفيف – بالحلاوة التي صنعتها لها من الليمون والسكر – تطبق على لحمها بها ثم تنزعها فجأة بقوة وسرعة فتنزع معها الشعيرات الخفيفة على فخذيها وساقيها والربوة المربربة الناعمة ما بين الساقين، ثم تكمل مانورة ما بدأت به أمس، إذ صبغت كفي يديها وكعب قدميها بالحناء، وهي الآن ترسم الوشم ذي الفروع والأغصان والأوراق على بطنها وردفيها وخطٌ أزرق طويلاً ينزل من السّرة إلى الحرز الحريز معقد السرّ وعمق الفجوة الإلهية الغائرة المفتوحة للاقتحام الإنسانيّ الذي يكتسب ألوهيةً بمجرد الاقتحام، الوشم الذي كان يزين صدور وأفخاد وسيقان كاهنات الكرنك وراقصاته على شكل الإله بيث إله الرقص القزم الأفريقي زنجي القسمات يعتمر تاجاً من الريش وجهه غليظ وساقاه ضامرتان، كانت الكاهنة أمونيت موشومة به، والآن عديلة، بعد كل هذه الدهور القرون آلاف السنين، تجد أنها موشومة على بطنها من السُرة إلى موطن السرّ الحريز بما يشبه مسخاً إلهياً بخطوط بدائية واضحة ساذجة لا توشية فيها ولا تزويق بل إشارات قاطعة، ما من فَرْق حقيقيّ بين عديلة في القرن العشرين بعد ميلاد المسيح وبين كاهنات طيبة البغايا القدسيات. في تكريسهن الإله شرف لا سقوط.

قال المخزنجي: يعني..!

هل من الضروري حقاً أن أحكي كيف ذهبت مانورة إلى أمّ عويس العروس الجديدة التي كانت قد شاركت في زفتها منذ سنين في حارة الجلنار، هي الآن ترضع ابنها وتعتصر من لحم جسمها ما يقيم أود الرضيع وأودها هي نفسها؟ هل من الضروري أن أحكي كيف أخذت مانورة معها دكر بط سمين ولكن شرس وجوز فراخ عتاقي توقفت كلتاهما عن البيض، وباعتها لأمّ عويس برخص التراب، ده بس عشان عيونك يا حبيبتي، بس عايزه منك خدمة صغيرة، تملي لي الكوز ده من لبن الرضاع، ياختي ما هو موصوف للحبايب زيك كده برضه.

هل من الضروري حقاً – أم هو من لزوم ذكْر الفولكلور؟ – أن أحكي كيف كانت مانورة – رآها المخزنجي نفسه عندما كانت تجيء له أيام المخزن في كفر عشري وصنعت وشماً من الأغصان والأوراق، وربما من تخطيطات لم يسمح لي برؤيتها، تخطيطات حميمة في مواقع حميمة من جسم الولد چو الجريجي الخول، كانت تدهن الإبرة بحليب أمٍ مرضعة مازال سخناً تقريباً مازال يشمّ رائحته المتميزة حتى الآن بعد أن استقطرته من ثدي الأم، وخلطته بكحل ناعم عطاري وارد بومباي بالهند.

قالت له إنه نافع جداً لضعف البصر وغشاوة العين والحكة والحمرة، وينفع في أغراض أخرى كثيرة – وخزت بالإبرة المغموسة في خليط لبن الرضاعة والكحل الهندي جلد الولد چو الناعم في ردفه الإيمن المكتنز، اختلط اللبن بالدم، واخضرّ الرسم الفاجروثبتت دعوته. قالت له مانورة أن ذلك بالضبط ما تفعله عندما تَشِمُ ذقون بنات الأعراب: خط أخضر داكن طولي على الذقن، أو حتى يمكن خطان متوازيان قصيران يكسبان البنت وسامة مطلوبة مرغوبة ومجلوبة مهما كان حسن البداوة الفطرية غلاّبا، قال المخزنجي وهل الزخارف العربية القديمة (وقد كان موطنها الأول

مصر القديمة على أي حال) وهي ليست إلا خطوطاً ونقطاً، ليست الا نوعاً من الوشم على إهاب الزمن استجلاباً لخلود أبديّ موهوم؟

السفينة الذهبية تشق صفحة النيل الشاسعة الرقراقة عند أخميم قادمة من صخور السماء التي صاغتها أيدي الآلهة القدامى وذاهبة إلى مصير غير محدد في مصبّ الفرع السابع من فروع النيل، وعلى جدار السفينة الذهبية خطوط طويلة زرقاء ونقاط قانية مدوّرة من دم مسفوح هدراً تحمل في جوفها دمَى وعرائس اتخذت من عظام الثيران والجمال، أو من سيقان شجر الأبنوس الذي كان ما زال ينمو ويزدهر بين أحضان كيمي الخصيبة الحارة، وعليهن هذه الخطوط الطولية الخضراء الزرقاء والنقاط القانية، تحط بها على الشط الغربي في المقابر القبطية الفرعونية البيزنطية الرومانية معاً، هن خليلات للموتى يؤنسْن وحشة القبر، وقد نهضن الآن من سبات قديم واستعدْن حياة صاخبة عارمة فياضة بالحنو والفجور معاً تحت رُقْية الغجرية الملكة الوحشية التي خلعت كسوة خشنة، سميكة من جلد الغَنَم المدبوغ الداكن ما زال الصوف عليه وثيراً وكثيفاً، وألقتْ به إلى جنب، ليكشف عن قميص داخلي أسود شفاف فيه وحده دعوة للتلمس وكان شعرها الوحف – هو دائماً وحف غنيّ الملمس – مربوطاً من خلف توكة معدنية براقة – ذهب قشرة يمكن – فيها وحدها دعوة للتلمس.

كلهن الآن مانورة ريم رامة راوية والمريمات مع خليلات الموتى يرقصن فوق القبور، مفترّات الشفاه عن ابتسامات نشوة ديونيزية غائبة، متعثرات الأوصال في انسياب جسماني سلسال لا يستتيم إلى أصفاد متماسكات بالسواعد والسيقان، راقصات ماتيس وطقوس حوريس وصنوج شِعْر قيس الملسوع بصبوات لا تستكنّ ولا صوت لها إذا صادفت استجابة عصية بين كثبان السُنَن المسلم بها فوق أسوار السنين.

قالت الغجرية للمخزنجي: هل تحب رقص سهير زكي؟

قال المخزنجي: عندها – وعند تحية كاريوكا وسامية جمال – أحب الجسد الذكيّ، الجسد الصاحي الذي يحاور الموسيقى حوار الأنداد، يكسب الموسيقى بعداً جديداً كما تكسبه هي نضارة جديدة، يقظة الجسد الذي لا ينكسر – قط – في أسر الصاجات بل يستأثر بها وتستأثر به معاً، راقصات المعابد القديمة على موسيقى الهارْب الكريستالية رافعات الأذرع إلى السماء، ناهدات الصدور نافرات إلى تحدي الأبد مع تلويات الأجساد. الدفوف وقرع الطبل الخام أجوف الصدر.

قوة قلبه تبيح له معرفة – ومتعة – رقص كل العصور، ضربات الإيلاج في حرارة أرحام لا ريّ لها.

"قام الوجود في أصل النشأة على المحبة.

المحبة مقام إلهيّ وصف الله به نفسه وتسمَّى بالوَدُود.

المحبة أصل الموجودات.

ألم يقل، عَزَّ وجَلَّ: "كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف . فخلقت الخَلْق. فيه عرفوني، أو فبي عرفوني".

"الموجودات لم تنتقل من الوجود بالقوّة إلى الوجود بالفعل الا بفضل المحبة الإلهية وبعد تلقّيها الأمر حيث كانت في العلْم الإلهيّ جاهزةً للكوْن.

"الوجود والكمال ارتبطا معاً بالمحبة".

كأن ليس ثَمْ وجودٌ إلا بالكمال.

"العلاقة بين الحقّ والخَلْق مشابهة للعلاقة بين الكمال الإنسانّي والرجل والمرأة، كلٌ منهما مجلَى للآخر سعياً وراء الكمال. علاقةٌ تتأسس على المحبة، وتقود إلى العلاقة بين الحقّ والخَلْق".

"أحبّ الله ان يُعرف فخلَق الخَلْق ليعرفوه. خلَق الإنسان ليكون مجلًى له، وخلق له، منه، المرأة، لتكون مجلى له يرى فيها ذاته التي هي مجلًى الذات الإلهية. حببها إليه لأن كماله فيها".

لا كمال له إلا بحبها.

"جعلها له المرآة الإلهية مجلَى النور الأزليّ.

"جعل كمالها – هي أيضاً – فيه. لا كمال لها إلا بالعودة إلى وطنها الذي صدرت عنه، ولا كمال لها – ولا للرجل – إلا بالعودة معاً إلى الجوهر الأول واجب الوجود الذي صدراً عنه في بدء الخلق"

قال المخزنجي: متى نعرف أن ابن عربي هو الآن معاصرنا وزميلنا ورفيقنا؟ والأكثر حداثةً منا؟

لم يجد ردّاً إلا عند كورس راقصات المقابر القبطية خليلات الموتى عاريات الصدور، انسدلت على خصورهنّ غلالات شفيفة هفهافة تخفق بها نسمات الشهوة غير المحسوسة، تحتها سراويل الجواري العربيَات المنتفخة بطيّات حريرٍ متطاير النسيج، منهنَ مَنْ أمسكت بقيثارة تهتز بها موسيقى لا يسمعها غيرهن. انسدلت أمام سراويلهن الموسيقية دلاّيات صغيرة أحجبه تصدّ الرَصَد وتُحبط العَمَل، يرسلن سواعدهن إلى أعلى، في كل معصم من أيديهن طرف من الغلالة كأنها أجنحة طائر، يَطرن في سماء خاصة بهنّ وحدهن لكنها مع ذلك سماءٌ تومىء إلى المخزنجي إيماءات ملغزة، كلهنّ قد تركن غدائر شعرهن منسدلة مفكوكة تنوس على ظهورهنّ العارية، راقصات المعابد الفرعونية الديموطيقية النازلات من على صروح المعابد ومن جدران المقابر البهيجة متخطرات يَمِسن من الحسن تيهاً، عاريات ناهدات محزومات بشرائط رقيقة حول الحقوين وبين الردفين، جلسن أمام الهارِبً الرشيق العالي محكم الأوتار يسمع المخزنجي عزفه

بالكاد، مع كورَسْ الصبية المترنمين الممسكين بدروع رمزية على أكتافهم نطاقات حريرية مرمية بإهمال تكشف أكثر مما تستر - كما يجري القـــول الشائع - منهم مَنْ يمسك بقوسٍ في يده مشدودٍ بسهمٍ لا ينطلق ولا يرتـــد، أقدامهم في أحذية حمراء، رؤوسهم معصوبة بعصابات زرقاء رفيعة تحيط بالجباه، شعورهم طويلة مدلاّة على أكتافهم.

الفصل التاسع

أما الردّ على سؤال المخزنجي - وهل تنتهي أسئلته؟ - فقد جاء بـــلا صوت ولا كلمات ولكنه فعال.

انفرطت من بين الراقصات والصبية الراقصين فتاةٌ مليئة الجسم أوثقت على خصرها إزاراً من الحرير الأحمر المقلّم بأقلام صفراء يرتمي باتساع على ساقيها.

أمسكت بكائنٍ حيوانيّ - لا شك أنه حيوانيّ، أليس كذلك؟ - له فـــرو أبيض وخطم حادّ رفيع، عيناه متألقتان بـــالخوف والاستســـلام ومعرفـــة المصير المحتوم.

رفعت ذراعها العارية بسكينٍ حامية تومض وهي تدور بها حول رأس الفِدية مرةً ومرتين وثلاثاً في ترنيمة طقوسية.

ثم تنقضّ.

ينبجس الدم يخضب الإزار.

دم الفدية شاهدٌ على سؤال المخزنجي.

دم الفدية كفّارة عن دم ابن عربي، ودم الحلاج، والسهرورديّ المقتول، وربّما عن دم يوسف المخزنجي.

موج هذه السماء صخريّ ورقراقٌ ناعمٌ لِدن الحنايا جـارح الحـوافّ تحت سحابٍ لازورديّ منزوع المخالب - كثبان روحية عجينة جسـمانية في آنٍ معاً ابتهال صلوات وثنية قبطية مرفوعة بالتهليل والتكبير إلى كـل الآلهة والقديسين وأولياء الله الصالحين من أول ضحايا الموت عن طواعية الراكعين تحت قدميْ ابى الهول تحت سفح الأهرامات إلى الأقباط شـهداء دقلديانوس وما لا عداد له ولا إحصاء من شهداء الإيمان بالعدل والحريـة وكرامة الإنسان: من سيبريا إلى بوخنفالد إلى الواحات المصـرية وطـرة والفيوم وأبو زعبل.

نقاء هذه السماء أوليّ بدائيّ لا تلوثه شائبة من فقْه المتفيقهـين، مـادّة الأنوثة الصراح ثَمَلٌ رائعٌ بلا بلَى ولا دثور صـحراوات هـذه الأجسـاد المضحّاة ممتدة على صخور الوجود أثداءٌ وأرحامٌ وقضبان ذكورية كونيةٍ تقوم في غمار موسيقى لا تتوقف أبد الدهر موسيقى العدالة النهائية ومطلق الحرية وتمام الكرامة، الكلمات النغمات الهتفات الصرخات تحت كـرابيج عساكر الأمن المركزيّ وتحت سياط النشوة إذ يبقى الجسـد بـالروح وإذ يجود الجسد بالروح، كلمات أثداءٍ تبضّ بلبن النعمة محجـوزاً أو مبـذولاً على السواء.

جسد السماء أنثويّ أبعاده لا متناهية.

صروح رمالٍ ماثلة ومنهارة تستنفر الجوهريّ الإنسانيّ فـي السـماء وعلى الأرض وفي الأعماق قبابٌ معابدٍ نحتتها أيْدٍ إلهيّة أناشـيد الأرغـن عميقة الأصداء تصدح في آفاق مفتوحة تحت سماءٍ غير مرئية ماثلة فـي القلب ماثلة في الخلود إلى أبد الآبدين أمين.

خلودٌ؟ أبدُ الآبدين؟

ها قد آذنت رحلة الحكاية – أو حكاية الرحلة – على الانتهاء. وهل ثمَّ انتهاءٌ لهذه الحكايات أيْ هذه الرحلات عبر الحقول والبلاد وسهوب الروح وأدغال الأجساد؟

هل تصل قافلة الغجر – قافلة الـرؤى – الآن إلـى غايتهـا أو إلـى مبتغاها؟

قال المخزنجي:

– لماذا أطرح على نفسي، وعليكم، أسئلةَ أعرف مسبقاً ألاّ إجابة عنها؟

هل كانت الرحلة إنفاذاً لأمرٍ إداري من رئيس المخزن رقم ٦ للمساعدة في مزاد بيع الرجوعات؟ أم كانت فراراً من الموت، من العفـن – عبـر مصر كلها – لكي يصل المخزنجي وربما نحن معه إلى المـوت وربمـا نجلو شيئاً من ذَفَر العفن الذي لا يطاق؟

أم كانت رحلة المواجهة بين قسمين متنافريْن مـن ذات المخزنجـي – وربما، بطموحٍ غير مبرر، للذات الجماعية للمخزنجي – بـين عنصـريْ الحلم من ناحية وما يسمى الواقع من ناحية أخرى؟ أم هي في آخرِ الأمـر حلقة دائرية مغلقة على ذاتها ولا بدء ولا نهاية لها من الموت إلى الحلـم، من الواقع إلى أغوار الذات؟ هل وصل المخزنجي إلى ثغرة فـي الـدائرة ينفذ فيها إلى ما وراءها؟ أم أنه ما زال يدور بها وتدور به بلا نهايـة ولا أمل في نهاية؟

قال المخزنجي مستشهداً بندّه ورصيفه – كما زعم لنفسه على الأقل:

– أعالج قلباً طامحاً حيث يطمُح!

وإن يبتهل – في غير صوت إلى غير إله: اللهمَ ألهمني أن يكون حبي أكبر من كبريائي. وقوِّني على أن يكون صدقي – على الأقل أمام نفسي – أوسع من خداعي.

قال: عندما يكتسب التجديف صفة القداسة..

قال: ليس للحلم شطآن.

في ساحة شعبية اسكندرانية – البياصة؟ الورديان؟ مينا البصل؟ تغمرها مياه المطر. الشقوق بين أحجار الرصيف الكبيرة القديمة تنبعث منها أعشاب خضراء وأزهار بنفسجية صغيرة دقيقة، كاللآلئ الغضة.

خرج من الساحة التي تحيط بها بيوتٌ قديمة إلى حارةٍ ضيقة ليس فيها منفذ إلى شارع الترام.

يجد نفسه في ميدان التحرير.

لم يتصور أنه يمكن أن يصبر على النزول إلى المترو، أن ينتظر وصول القطار، أن يسير على الرصيف الموحش معتم الضوء.

صحيحٌ أنّ في جسمه، وفي العالم كله – حتى في هذا النَفَق تحت الأرض – خفةً ونوراً، الشوق قد اتخذ لنفسه رنين الفرح، مهما كانت موسيقاه مكتومة، لكنه لم يكد يحتمل أن تمر أزمانٌ لا نهائية في هذه الدقائق القليلة حتى يصل المترو، دمدمته البعيدة يخيل إليه أنها لن تأتي أبداً.

هوذا يقدم من جوف الأرض، مقتحماً بقوة البشير، يقف لحظة وجيزة لكنها لا تنقضي، صامتاً، مفتوح الأبواب، كأنما لن يتحرك أبداً.

ثم ينطلق، ويقف، ويتحرك، ويندفع، ويقف.

ألنْ تأتي المحطة؟ ألا ينتهي الطريق؟

يقف المخزنجي، يستعد للنزول، القطار يهتزّ بـه، يصطفق البـاب بارتطامٍ بهيج.

عندما يتلّفت من اللهفة والتلدُّد، بحثاً عن باب النزول، بحثاً عن السلّم الصاعد إلى سطح العالم، لا يجده. ثم فجأة يجد نفسه في الشارع. يكفّ نفسه عن أن يجري مندفعاً يقطع هذا الشارع الذي سماؤه عالية لا نهاية لعلوّها، يعرف كل بابٍ فيه، كل بيت، كل واجهة، كلّ محلّ، ومحطة البنزين، وبائع الزهور الذي اشترى منه، لها، ستّ وردات حمراوات قانيات الحمرة متفجّرات بنار خبيئة غضّة، وبائعة الخبز الرقيقة التي صححت له خطأه، بابتسامةٍ ودودةٍ، عندما طلب منها الخبز والجبنة التركي فقالت له أنت دائماً تطلب العيش والحلاوة! فقال هذا ما أقصد.

يصل إلى الباب الذي – وإن كان يحفظ الرقم، رقم الكود – لا ينفتح لأن أصابعه تتسابق وتتراكب في اضطراب الوصول. يتوقف لكي يتنفّس. ينفتح الباب فجأةً من تلقاء نفسه عن الممر المسقوف الذي تتردد فيه موسيقى السيبسان والمروج الخضر، ولكن في قلبه – هو – اصطدامات موسيقى عواصف أشجار مضطرمة تكلم من نارها صوت إلهيّ.

عندئذ تسطع عيناها على وجوده فيسقط العالم في هوَته التي لا قرار لها.

طعنة هذه النظرة في جسد التنين لن يفيق منها أبداً بعد الآن.

ليست يده التي تمتد إليها ولا جسمه الذي يتحرك مأسوراً في جاذبية جسمها الهادئة تماماً التي لا فكاك منها مع أنها عاديّة لأنها حتمية لأنها قانون الوجود نفسه بل قانون التقاء السماوات والأرضين نعمةٌ ليست من هذه الأرض تتجسد في روحه شوقاً لابرء له وحباً لا حد له – أو هكذا قال المخزنجي.

شفتاه بلا نهاية على جانب عنقها الناعم، وجهه على كتفها، يغمض عينيه على دموع الفرح الذي لا وصف له، ترفرف عليه أجنحة حمامة روح قدسّيٍ، قبلات كأنما لا ريّ لعطشها ولا نهاية لنشوة سعادتها أبداً. كل جارحة من نفسه وجسده تجد الآن إجابة عن ظمأٍ أحرقها طوال آبادٍ ودهور، ظَهْرها الناعم بين ذراعيه فالعالم يهبه نفسه، والسماء. عندما تجد يداه ثديها أخيراً بملء نعومته وقوامه القويّ اللدن فليس لديه بعد ما يريد. لكن الشوق المستبد به إليها كلها، يقول له إن هذا غير صحيح، وإنه يظل يطلبها، وإنها أرض الميعاد الخصيبة المليئة بخمر عناقيد العنب وصحو النشوة التي لا حد لها. هذا الشوق القديم الضارب بجذره الصلب حتى أعمق ما فيه، يطلبها، كلها، ما زال.

رؤيا حبٍ كاوية، في نورها الباهر الذي يضيء كل شئ. كم من رؤى!

صوتها الذي سمعه عذباً للمرة الأولى من زمنٍ سحيقٍ، وهو في اللحظة الأخيرة من كابوس غريب طويل، هل يمكن أن يقول ماذا فعل به، صوتها؟ عندما نادته نداء إعزازٍ لم يعرفه طوال هذا الزمن السحيق – قال: متى؟ – نكصت كل الوحوش وكلّ المسوخ على أعقابها. رفّت نفسه وأينعت في لمح البصر، فقط لكي يعرف أنه يمضي في انشعابةٍ أخرى من طريق هذه الدنيا الغريبة.

خلال هذا الزمن السحيق – سأل نفسه مرة أخرى: متى؟ – كان يائساً تقريباً من أنهما سيلتقيان، كان موقناً تقريباً أنها لم تعد تهتمّ. عادت المسوخ فأطلّت عليه بأفواهها مشرعة الأنياب، من جديد، لا ردّ له عليها إلا بهذا اليقين الوحيد: أنه يحبها. ليس لحبّه مدى ولا حدّ ولا نهاية. شوقه إليها لا يصدّقه، هو نفسه، ولا يعرف كيف يحتمله.

محبوبة كالنار الموقدة وجمالها في حبّة قلبه.

قال المخزنجي، دون أن يُعنَي بأن يكــون لكلامـــه ســياقٌ مضـــبوط، كالعادة:

- فيّ ثعبان وعصفور، سمكة ونورس، دودة وحدأة، ثورٌ وبطّة، فحل نخْل وخَصّة غضة خضراء بعض أوراقها قد اصفرّ وذوي، جنادل أسوان وبرَك الملاّحات الوخْمة برائحتها الزاعقة التـــي لا تطـــاق، فـــي داخلـــي روّضتْ الجنس، دجّنته، عقّمتُه وصنّفتُه وجَدْولتُـــه وبرمجتُـــه، خططتـــه وضبطته وحددت إقامته وفي الوقت نفسه أطلقت له كلّ عرامته وحوشـــيته وبرّيته وضراوته وانفلاته وجماحه الذي لا يُكبَح.

فيّ أنا أنتِ.

أعرف في صميمي صرخة فرحك ومفاجأتك فـــي لحظـــة الاختـــراق الحميم، أنتِ الأنثَى فيّ، أليس التأنيث هو أصل الوجود كما قال شيخي ابن عربي؟ أو ما فهمت إنه قال، على الأقل.

في شبكة هذا التركيب المعقد أصغى المخزنجي، بالصـــدفة، مســـلوب اللبّ تقريباً، إلى شجو ستّ الكلّ بنواح حبيبها الذي ضيّع عمره في هواها. دون معنى في الحقيقة؟ أم أن ذلك هو كل المعنى من حياته؟

خايـــف يكون حبّك ليّ شفقة عليّ

إنت اللي في الدنيا دي ضَيّ عينيَ

ردّي يـــا روحي عليّ ودا يرضيكِ

ما دام حيـــاتي في إيديكِ حِنّي عليّ

أنا اللي عـــارف

وراضي بغلْبي ومراري رقّي شويّه

قال:

- لا..لا يا رامي.. حتى لو كان في داخلي هذا الذي يشدو مع العاشق القديم الذي وهب حياته لا مرأةٍ لها سطوة الفنّ التي لا غلابَ لها - هل هي عندي مانورة ريم رامة مريم أمّ النعمة؟ - فإن في داخلي ايضاً العاشق القادر على أن يسحق شجوه وشجنه ولا يعنو.

أو هكذا عزّي نفسه.

لكنه لم يكن يخدع نفسه.

كان يستطيع أن يكون قاسياً إلى آخر حدّ على نفسه، وعلى مَنْ يهواه، هل كان في دخيلته عِرْق مازوخيّ؟ أم هو عِرْق كبرياء عصيّ على الخنوع، مهما كانت متعة الاستسلام والانصياع والرضَى بالمكتوب.

قال: البحر لا يعرف الخضوع ولا مذلّة الهَوَى.

جمال البحر، زرقته الخاصة تحت سماءٍ نقيةٍ بسحبٍ خفيفة ممزقة في صباح نوفمبر، البحر قد عاد إلى براءته وإطلاقيته ووحشيته وخَلَصُ من خيط البشر الذي يلتصق بحافّته. لكنك يا مانورة لا تعرفين البحر، ولا رامة تحبه، في حقيقة الأمر، بل فقط مَرْيَمته تموت عشقاً في صفحته الساجية أو الجائشة، في زرقته العميقة الداكنة أو اللازوردية الفاتحة، على السواء.

قال: أحس أجنحتي قد نمتْ وخشنت واتسعت جداً.

لكن الأجنحة القوية تصطدم بأبواب السجن المغلقة أمام صفحة البحر الشاسعة المفتوحة. سجن مضطرب القضبان ولكن محكمها، سجن بمجرد وجوده يُخايل بأن الحرية الحرية الحرية هناك، لا غنى عنها، هي نفسها الحياة.

أما أن يزعم المخزنجي لنفسه أن أحداً لا يعرفه - فهو أيضاً سجن آخر.حتى وهو في داخل السجن، حتى وهو يتوق توقاً محرقاً لا ريّ له للحرية، للانطلاق، لصيحةٍ تتردد أصداؤها في الآفاق: ها.. لا تعطني حريتي.. بل أنا الذي أنتزعها، فلذةً بعد فلذة تتقطر منها دماء طازجة حارة.

أما قناع "الاحترام" الذي يضعه المخزنجي على وجهه، قناع الموظف المحترم، قناع المتفلسف المحترم، كما يضع راقصو المعبد الهنديّ أقنعةً صارمة جهمة على وجوههم، فهو قناع - في الغالب، ربّما - يحتمي به من خشية الفقدان أو من خشية الضياع، قناع لعله يواجه به أفق الحرية الشاسع الوسيع.

قال المخزنجي للغجرية:

- أنت تعرفين قلبي، حتى وأنا في الصمت، حتى وأنا وراء القناع.

هل قال؟

الحجارة تضرب القناع.

الحجارة تنهمر، تنهال على القناع، هل الحجارة تناله بالشروخ والشقوق والتمزقات ثم بالانهيار؟

الحجارة التي رمى بها إدوارد سعيد، رمزاً لا يمكن أن تُدحض قوّته، في وجه أقنعة الاغتصاب والامتهان والقتل.

الحجارة التي يلقي بها الصبية، يلقون معها أرواحهم، على صلف المدرّعات والدبابات والبنادق الآلية "عوز" التي - هي - تلفظ الموت والرصاص والخراب، تطعن الأجساد الحية النابضة الرفّافة بالصبا ودفْق الحياة، أجساد الحرية، الحجارة تصطفق بجدران السجون المدرّعة.

قال المخزنجي: أحس.. ياه.. كم أحس.. الحجارة تصطدم بالقناع.

ثم قال: وما جدوَى.. وما قيمة أَنْ أُحس..؟

فقال: أما الجدوَى فلا شأن لي بها، أما القيمة فهي هناك، منذ أن قام الإنسان كائناً شرط وجوده الحرية.

ثم قال، متأملاً ما بقي في وجدانه من ترسبّات شيخه العتيد:

- هل القناع هو الرغبة المتحجرة في الوصول إلى الكمال؟ المرأة، الغجرية، في حقيقتها الأزلية الإلهية، الرجل - أيّ رجل؟ - في صورته الأزلية الإلهية، هما بلا انفصال جانبا الكمال. لا قيام لأيهما من غير الآخر.. المرأة أتمّ وأجلى صورة للحق.

قال: في المرأة أعرف الإله.. الحقّ صوّرها وجعلها مجليً له، ليست فقط ضلع الرجل - أيّ رجل؟ - بل جانب الجدار من قلبه، نور الحق، وظُلمته.

ثم قال في النهاية:

- مرأتي الواحدة المتكثرة بلا نهاية أيقونتي أرفعها بحثاً عن الإله في داخلي.

عندما نزل المخزنجي إلى ساحة الأعمدة، فوجيء - وكأنه لم يفاجأ - بمضارب الغجر تحت الصرح الشامخ المهيب، في كنف الأعمدة الضخام السامقة المكللة بسعف النخيل الحجريّ المنحوت وأوراق اللوتس الصخريّة، أقاموا خيامهم تحت الأعمدة نفسها، بجانب البحيرة التي بدت له راكدة الماء، داكنة، تكاد تكون ضحلة رخْراخاً. أوقدوا نيرانهم هناك، وضعوا فوقها مواعينهم يسخّنون فيها ما لا يدري كنهه من حساء وأنواع من الأكل لا يعرف لها مذاقاً ولا شكلاً.

قال: مانورة.. ماذا تفعلون هنا؟ ماذا جاء بكم؟ ما هذا الذي يحدث؟

انبري له وضّاح الحداد، كان ينتظر هذه اللحظة منذ أن قتلت ريم. هو الآن يهم بأن يأخذ ثأرها من المخزنجي.

كان في خطوته عزمٌ على القتل.

اندفعت مانورة، وقفت بجسمها الذي بدا هائلاً جسيماً، بين المخزنجي ووضاح.

قالت: وضّاح.. ارجعْ. هذا الرجل لي. ليس لك. وانتَ يا باشمهندس، انتَ أيضاً ارجع. الخطر ما زال حولنا، في كل مكان، حوّلنا نحن كلنا، أنت وأنت وأنا وكلنا. في مهبّ النار.

سطعت رائحة الدخان، ارتفعت سحبٌ متمزقة منه بين الأعمدة الشامخة.

الهيش، وراء الساحة، يحترق، نار متأججة تدقدق وتدمدم ولها حفيف وأزير شرّير، تسطع في شعاليل لها ألسنة حادة متراقصة.

امتدت النار إلى خيام الغجر.

اضطرمت النار بها.

رأى المخزنجي أنّ الشقّ الحيواني من عائلة الغجر يتواثب مترنحاً يصأى ويعوي وينبح ويموء بصوت شكاةٍ بائسة. القطة مورة والكلبة صانوه والقرد الذي لم يعرف له اسماً – ميمون؟ – والبغل الذي رَمَح فجأة دون أن يكبحه عنان أو يشكمه لجام، تنطلق كلها مندفعة نحو البحيرة.

كان على حافة الحريق ساري الصيّاد الذي لا يصطاد شيئاً، لا حيواناً ولا بشراً، ولعله كان قد فرغ من صَيْد كل شئ، يوقن المخزنجي – دون سبب – أنه كان من البداية يعرف أن الحريق سوف يشتعل، لا محالة.

مانورة وحدها، متقدة مضيئة كالشمس، فوق البحيرة المقدسة.

في الحريق كان العالم كله صحوا، زهرة النار الكبيرة متفتحة صفراء موسيقاها الشرسة الوحشية مُحيية للروح من رميم الصمت في نسُك هذا النور الحجري الصاعد إلى أعلى بلا انتهاء.

زهرة النار اليانعة تنبثق من خواء الساحة خواء الوجود تتحدى الزمن تتحدى الجفاف تتحدى العسف والجور والعفن، عنيدة قوية لا يُحبطها شيء، أوراق الشعاليل الحمراء تكتنز في صميمها عصارة غنيّة لا تذوي، اكتناز الصبوات الراسخة الدفينة في قلوب العشاق، توقاً إلى الحرية وإلى عدلٍ مطلق مستحيل، مع رهافة نسيم أشواق لا تنطفيء. زهرة النار المتقدة المونقة تنوس في بؤرة الروح بؤرة الهيكل القدسي نداءً وما من إجابة. موسيقى الحريق النار الشعاليل الأشواق متراقصة ماثلة الحضور جمالٌ خاصٌ محجوز في كؤوس زهرة النار، شفاه شبقية مفتوحة للعشق، عشق الأبد وعشق الآن، في أرض الظلم والقمع والجورْ، قبلة صامتة لا زمن لها، قبلة الإلهي والإنساني.

قال المخزنجي: ليست هذه زهرة نارية. بل ماسةٌ هائلة متقدة، ماسةٌ جسدانية، ليس أصلب منها، وهي لدنة اللحم. انعطافة، في صلبها، للعناق بين الملموس المجسّد والمصفّي غير المجسم، ماسةٌ تنبثق من أطرافها البلّورية أشواكُ طعنةٍ من أسلحة مهددّة مُشرعة نحو الظلْم والاغتصاب والامتهان، ماسةٌ زهرةٌ طعنةٌ، قاطعة تجزّ لحم القبح والتردّي واللامبالاة، لا يُطامنْ منْ وحشيّة لذعتها إلا صدقُ الحبّ.

هكذا قال المخزنجي.

وقال أيضاً إن الفقد هو تمام الوجدان، والفقدان هو بلوغ المنتهى.

قالت له مانورة الغجرية:

- في طريقنا إليك، في طريقنا إلى هنا، احترقت البلاد، بلداً بعد بلـــد، فما عادت فيها غضارة ولا نضرة.

قال المخزنجي فيما بعد: هل كانت تتنبأ بما سوف يحـــدث؟ أم ترصـــد حقيقة التدهور التاريخي - هكذا قال! - وتنتظر ما سوف يجئ: إمكانيـــة الخصوبة، عودة النضارة والازدهار المونع؟ كاساندرا أم بينوبيلى؟

لكن المخزنجي لم ير أحداً - غير مانورة وساري الصياد - من قافلـــة الغجر.

حقت عليهم ضربة النهاية.

القاهرة ٢٧ أغسطس ٢٠٠٤

إدوار الخرّاط

- **إدوار الخرّاط** (إدوار قلته فلتس يوسف الخراط)
- روائي، وقصاص، وشاعر. اشتغل بالنقد الأدبي والتشكيلي، وعمل بالترجمة، وكتب للإذاعة وقام بتحرير عدة مطبوعات.
- ولد في ١٦ مارس ١٩٢٦ في الإسكندرية لأب من أخميم في صعيد مصر وأمّ من الطرانة غرب دلتا النيل، وحصل على ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الإسكندرية.
- العنوان: ٤٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك – ١١٢١١ – القاهرة، الهاتف: ٧٣٦٦٣٦٧
- عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده في ١٩٤٣، في مخازن البحرية البريطانية في القباري بالإسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" في الإسكندرية، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالإسكندرية حتى ١٩٤٨.
- شارك في الحركة الوطنية الثورية وفي حلقة تروتسكية في الإسكندرية في ١٩٤٦.
- أعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨، سنتين في معتقلات "أبو قير" و "الطور".
- ثم عمل في شركة التأمين الأهلية المصرية بالإسكندرية حتى ١٩٥٥، وانتقل للقاهرة مترجماً في السفارة الرومانية حتى ١٩٥٩.
- تزوج في ١٩٥٨ وله ولدان وأربعة أحفاد.
- في ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم في اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ وأشرف على تحرير عدة مطبوعات سياسية وثقافية لهما أبرزها "الشعر الأفريقي الآسيوي" و"قصص أفريقية آسيوية" بالعربية والإنجليزية والفرنسية. شغل منصب السكرتير العام المساعد في كلتا المنظمتين. وهو الآن متفرغ للكتابة.
- سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا، في رحلات عمل.

- شارك في إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقي الآسيوي بالعربية والإنجليزية والفرنسية، ومجلة "جاليري ٦٨" الطليعية.
- قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصري الحداثي (العدد ١٤) من مجلة "الكرمل" في ١٩٨٤.
- شغل منصب مقرر لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٢.
- ترجم إلى العربية عن الإنجليزية والفرنسية سبعة عشر كتاباً منشوراً في القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعلم الإجتماع. كما ترجم للبرنامج الثاني في الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنتي عشرة مسرحية قصيرة وكتب له تسعة وعشرين برنامجا إذاعياً طويلاً. وشارك في برامج وندوات ثقافية متعددة فيه.
- نشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث في المجلات الأدبية المصرية والعربية والأوربية.
- دعي أستاذاً زائراً في كلية سانت أنطوني بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩ وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصري الحديث في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) جامعة لندن، ومركز الشرق الأوسط في أوكسفورد، وكلية القديس أنطوني، جامعة أوكسفورد، في عامي ١٩٧٩ و١٩٨٧، وفي نادي الأمم المتحدة في نيويورك، ١٩٨٠، وفي ندوة دولية عن السيرة الذاتية في كلية القديس يوحنا، جامعة أوكسفورد، ١٩٨٨، وفي الملتقى الدولي للكتّاب في لندن ١٩٩٩.
- شارك في ملتقى القصة القصيرة، فاس (١٩٧٩)، وفي ملتقى الرواية العربية، مكناس (١٩٨٣)، وفي مهرجان أصيلة، (١٩٩٨) في المغرب، وفي ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط (إبريل ١٩٨٧)، وفي لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب، (باريس ١٩٨٨)، وفي عدة مؤتمرات ولقاءات أدبية في روندة، والمرية، ومولينا، وغرناطة، وطليطلة (أسبانيا) وبودابست (المجر)، وهايدلبرج وفرانكفورت وفرايبورج وبرلين (ألمانيا)، وتورنتو (كندا) وفي كوبنهاجن (الدانمرك) وقام بجولة

أدبية واسعة في سويسرا وألمانيا في ١٩٩١، وقام بجولة أدبية في جامعات ييل، وبنسلفانيا، وبرنستون، وكولومبيا (نيويورك) في الولايات المتحدة الأمريكية، في ١٩٩٢. في ١٩٩٥ حاضر في البرتغال وإيطاليا وإنجلترا. في ١٩٩٨ و١٩٩٩ شارك في ندوات عقدت في باريس، وفي إكس إن بروفانس وأجْد ومونبلييه وسانت إتيين في فرنسا، وأمستردام في هولندا. وشارك في الاحتفالات بتأبين غالب هلسا ومؤنس الرزاز في عمّان (١٩٩٨ و٢٠٠١).

- مثّل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكاري الخامس والستين لنادي القلم الدولي في هامبورج (١٩٨٦).
- شارك في ملتقى قابس (تونس) للرواية العربية في ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون "ضيف شرف" للملتقى، وكان موضع تكريم الملتقى في ديسمبر ١٩٩٣.
- شارك في ملتقى القصة القصيرة في عمان (الأردن) عام ١٩٩٣، وفي مهرجان المحبة باللاذقية (سوريا) في ١٩٩٦، وفي ندوة عن "المتخيل والبحر الأبيض المتوسط" في بيروت عام ١٩٩٨.
- في مارس ١٩٩٤ قام بجولة في خمس مدن إيطالية (تورينو، فلورنسه، ميلانو، روما، باري) وألقى فيها محاضرات عن "اسكندريتي، ملتقى الثقافات".
- في أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقي سلسلة من المحاضرات في معهد العالم العربي بباريس عن "الاتجاهات الحداثية في فن القص العربي" صدرت في كتاب عن دار الآداب، بيروت، ١٩٩٩، بعنوان "أصوات الحداثة".
- في نوفمبر ١٩٩٦ ألقى في شيكاغو محاضرات عن "طقوس تحدي الموت عند المصريين" وفي نيويورك محاضرة بعنوان "تنويعات على موضوعات السيرة الذاتية".
- في نوفمبر ١٩٩٨ رئيس لجنة التحكيم الدولية في مهرجان باستيا لأفلام ثقافة البحر الأبيض المتوسط في كورسيكا، وفي ٢٠٠٢ رئيس لجنة التحكيم الدولية لمهرجان قرطاج السينمائي.

- رئيس مؤتمر الرواية المصرية المغربية بالقاهرة (١٩٩٨)
- رئيس مؤتمر أدباء الأقاليم في الفيوم (١٩٩٥) ومؤتمر القصة الأول في أتيليه الإسكندرية (٢٠٠١)
- شارك في الاحتفالات بالبدء التجريبي لنشاط مكتبة الإسكندرية في ٢٠٠٠، وفي بينالي الإسكندرية عام ١٩٩٧ وعام ٢٠٠١.
- عضو لجنة التحكيم الدولية في مهرجان المسرح التجريبي بالقاهرة في ٢٠٠٢.
- شارك في "مهرجان برلين للأدب العالمي" في سبتمبر ٢٠٠٢.
- قررت روايته "رامة والتنين" في جامعة باريس، وترجمت للإنجليزية.
- ترجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجنبية، وترجمت روايته "ترابها زعفران" للإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية والسويدية واليونانية، واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج "كتاب العام" عن ١٩٩٠.
- ترجمت روايته "حجارة بوبيللو" للفرنسية والإيطالية والقطالونية الأسبانية والألمانية والبولندية والإنجليزية في برنامج "ذاكرة البحر الأبيض المتوسط"
- ترجمت روايته "يا بنات إسكندرية" إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية.
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "رقصة الأشواق" مترجمة للفرنسية عام ١٩٩٧.
- في عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة في مصر احتفالية حافلة في الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس ١٩٩٦ شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً. صدر عنها "مغامر حتى النهاية" عن مركز الحضارة العربية للنشر، في ١٩٩٩.
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١، وعلى جائزة العويس في مجال القصة والرواية عام ١٩٩٤ / ١٩٩٥، وعلى جائزة كفافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨. وعلى جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٩.
- حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ٢٠٠٠.



قصة حب مشتعل بين غجرية فاحشة الجمال فاحشة السطوة وبين فتى يعمل في مخازن الإسكندرية ويتفلسف ويبحث عن معنى الوجود .. ومعنى الوطن .. ومعنى الحب.

تقاليد وأعراف الغجر المصريين من خلال دراما عنيفة الأحداث .. شاعرية .. وخصيبة الدلالات.

رواية يتوّج بها إدوار الخرّاط أعماله الروائية المتميزة.

دار البستانى للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠